رواية

الأســـــطى

الأســـــطي

بقلم: مصطفى الأزهري

الإخراج الداخلي : إسلام الحماقي

تصميم الغلاف : ضياء إبراهيم

مدير النشر: أحمد خطاب

رقم الإيداع: 28383 - 2017

الترقيم الدولي: 4 - 45 - 6593 - 977 - 978

الطبعة الأولي: 2017

إشراف عام : أحمد عبد الجواد

مؤسسة عابر للنشر والتوزيع

01007677910 - 01111883712

3aberorg@gmail.com

www.3aber.org

عابر 3aber

جميع الحقوق محفوظة، وأى اقتباس أو إعادة طبع أو نشر فى أى صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابى من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

رواية

الأســـــطى

بقلم: مصطفى الأزهري

بسم الله الرحمن الرحيم

حينما يرفض الأبناء معرفة تاريخ الآباء والأجداد، يحكمون على أنفسهم بالتأخر المعرفي؛ لأن معرفة سيرة الآباء ومسيرة الأجداد تزيد من نجابة الإنسان ورزانة عقله، كما أنها تُساعده على إدراك ما يدور حوله من أحداث؛ لذلك أهدي هذا العمل إلى أرواح آبائي وأجدادي، لعلي ألتمس من أمجاد الماضي آفاق المستقبل، فتلك الأرواح الطيبة جديرة بالاتباع والاقتداء؛ لما قدمته في ميدان العمل من عمارة الأكوان، وإكرام الإنسان، وصيانة الأوطان، فهذه أرواح «أحبت كلَّ شيء فأحبها كل شيء».

مصطفى الأزهري

(1)
أغسطس عام «2020م»

بعد أن صليتُ فجر يوم الجمعة في المسجد المجاور لبيتي، جلستُ أقرأ «سورة الكهف» لعظيم فضل قراءتها يوم الجمعة، ثم قرأتُ الأذكار المستحب قراءتها في هذا اليوم المبارك، وظللتُ جالسًا في المسجد حتى أشرقت الشمس ببهائها، وأزاحت الستر عن وجهها، فأنارت الدنيا بنور ربها، فخرج الإنسان من بيته، والطائر من عشه، والزاحف من جحره، متحدي «النوايا»، فكلهم قد خرجوا إما لقضاء حاجة، أو طلب رزق.

دخلتُ البيتَ فألقيتُ السلام، فلم يرد عليَّ أحدٌ لأنهم نيام، إلا زوجتي التي دخلتْ مطبخها لتصنع لَي فطورًا من جيد الطعام.

جلستُ أحضر خطبة الجمعة وأكتب عناصرها؛ حيث لا أقوم بتحضيرها إلا في صباح هذا اليوم، فبينما أنا مستريح على أريكتي في غرفة استقبال الضيوف وأمامي المنضدة الصغيرة أضع عليها هاتفي المحمول، و المصادر التي أكتب منها عناصر خطبتي، وقد عزمتُ على أن أتكلم في هذه الخطبة عن «صفات التاجر الأمين»، فأخذتُ الهاتف وبدأتُ التصفح بعض المواضيع التي كُتبت حول هذا الموضوع عبر المواقع الالكترونية، فجاءت أم الأولاد بالفطور، وقد نسيتُ أنها تصنع ليَّ فطورًا، بل كنتُ أظنها نائمة بجوار أبنائها تحت هواء التكييف المُفَلْتَر.

فوضعتْ أمامي الطبق الصيني المزخرف الذي يسع من أرغفة «الفينو»

عشرة، وكان بصحبة هذه الأرغفة «مج الشاي الأحمر» الذي عهدتُ شرابه في كل صباح.

قلتُ لها اجلسي معي نتناول الفطور، فجَلَستْ.

أخذتُ أعرض عليها عناصر خُطبتي التي جمعتُها من أمهات الكتب وأوثق المراجع وصحيح المصادر، ثم طلبتُ منها «الإدلاء» برأيها السديد وعقلها الرشيد، فليس في مشوارتي لزوجتي والأخذ برأيها عيبٌ كما يزعم بعض المتشددين، بل لي سلف في ذلك ولستُ بدعًا من الأمر، فإن شيخ «مدين» وحكيمها قد أخذ بمشورة ابنته لما قالت له: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾[القصص:26]، فكان لهذه المشورة أثرًا طيبًا، على أهل هذا البيت، فصدق القائل حينما قال: «وراء كل رجل ناجح امرأة».

تَصَوَّرتْ زوجتي عناصر الخطبة تصورًا يمنحها الحكم عليها، فقالتْ لي: «الناس الآن في حاجة لتطبيق مايسمعونه، كما أنهم في حاجة ماسة لمثل هذه المواضيع»

فقلت لها: نسأل الله أن يجعلنا ممن يسمعون فيفهمون فيعملون فيُقبلون.

نامت زوجتي ونحن نتحدث فقلتُ لها: الحقي بأبنائك.

فضحكتْ وقالتْ لي: «خير لحوق هو».

ثم قامت وتركتني مع كتابي وقلمي وكشكولي، وقبل أن تغادر غرفة استقبال الضيوف أخبرتني أنها قامت بتجهيز «الجُبة الكحلي والقفطان الأبيض» ووضعتهما بجوار العمامة؛ ليكتمل الزي الرسمي الذي أرتديه عند صعودي

المنبر، شكرتُها على هذا الصنيع، وتبادلنا بعض الكلمات الغزلية، لكن النوم قد فرق بين الأحبة، وساقها للحوق بأبنائها، وتركتني وحيدًا مع قلمي وكتابي.

أوشك وقت الجمعة على الدخول، حيث بدأ القارئ عبر أثير موجات «إذاعة القرآن الكريم» بتلاوة آيات الذكر الحكيم، فناديتُ على ابنيَّ «رضا و علي» أبناء الخامسة عشر، فاستيقظ رضا، وظل علي غارقًا في بحر أحلامه.

حاولتُ أن أوقظه أنا وأخوه لكنه لم يستجب لنداءتنا فإن سلطان النوم قد حكم وحضر، فقمتُ بإراقة كوبًا كبيرًا من الماء عليه فاستيقظ متأففًا.

ارتديتُ ملابسي، وارتدا كل منهما جلبابًا أبيضًا، ثم خرجنا من بيتنا قاصدين «المسجد الكبير» الذي أخطب فيه منذ عشرين عامًا، أديتُ الخطبة على عادتي في غضون عشرين دقيقة؛ حيث عرضتُ فيها الصفات التي يجب أن تتوافر في التاجر، وجئتُ بالآيات والأحاديث والقصص التي تؤيد ما أردتُ أن أقوله للناس.

نزلتُ من على المنبر وأديتُ الصلاة، وبعد أن سلّمتُ في الركعة الثانية، اعتدلتُ بوجهي نحو المصلين وجلستُ في محرابي الذي أديتُ فيه الصلاة، فبدأ المصلون يتوافدون إليَّ ما بين سائل عن معلومة سمعها في الخطبة، ومستفتٍ لديه مشكلة في بيته.

وبينما أنا على هذه الهيئة في محرابي أجلس جلسة المتمكن على الأرض، يأتي إليَّ رجلٌ يربو على السبعين، أعرفه تمام المعرفة، فلما اقترب من مكان جلوسي، قمتُ له إجلالاً واحترامًا وتوقيرًا لشيبته، وامتثالاً لقول معلم البشرية ﷺ:«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا».

ضمني الشيخ الهرم بين أضلاعه ضمة الأب الحنون لابنه، ثم قال

لي: رحم الله «الأسطى»، فكلما رأيتُك على المنبر تذكرتُه، وأنت اليوم حينما تكلمتَ عن التاجر الأمين وصفاته ذكرتني به، رحمه الله تعالى.

قلتُ له: رحم الله أبي وأباك.

فقال لي: رحم الله جميع أموات المسلمين، الفاتحة لهم.

قرأنا الفاتحة ثم انصرفنا، وأثناء سيرنا في الطريق يسلم علينا من نعرفه ومن لانعرفه، وإذ بامرأة قد بلغت من الكبر عتيا، تلتقي بنا في الطريق فسلمت عليَّ ثم سلمت على ابنيَّ وقبلتهما وقالتْ لهما: «أنتما أحفاد العزيز الغالي، رحم الله جدكما، كان رجلاً في وقتٍ كان الرجال فيه قلة».

وصلنا إلى بيتنا الجديد المكون من خمسة طوابق، حيث تسكن«أمي» في الطابق الأول، وأسكن «أنا» في الثاني، وأخي «علي» في الثالث، وأخي «محمد» في الرابع، أما الطابق الخامس فقد خصصته «أمي» لتربية الطيور، التي تهتم بأكلها وشرابها، كاهتمامها بأبنائها وأحفادها، بل أزعم أن «أمي» تهتم بطيورها أكثر من أبنائها وأحفادها.

فقلتُ لها في يوم من الأيام: يا أماه أرى أنكِ تبالغي في الاهتمام بهذه الطيور، فما السر في هذا الاهتمام ؟!

فقالت لي: ياولدي إن هذه الطيور تحسُّ كما نحسُّ، وتتألَّمُ كما نتألَّم، وتجوعُ كما نجوع، وتتوجَّعُ كما نتوجَّع، لكنها لا تشكو ما نزل بها، كما نشكو نحن ما نزل بنا ؛ لذلك كان واجبًا علينا أن نقوم برعايتها وعناياتها ورحمتها، لنفوز برعاية وعناية ورحمة خالقها، ألم يقل أرحم الخلق بالخلق: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ».

لعلك ياولدي عرفتَ الآن «سر اهتمامي بهذه الطيور» ؟!

فقلتُ لها: «بلى» عرفتُ يا أُماه.

دخلنا البيتَ فألقيتُ السلام على أهل المكان من «الإنس والملائكة والجان»، وعلى عادتنا اليومية دخلنا الطابق الأول عند «أمي»فوجدتُ زوجتي عندها تصنع لنا الغداء مع شقيقتي الصغرى؛ حيث إن البيت بأكمله يجتمع عند أمي كل يوم لتناول الغداء، فسلمتُ على «أمي» وتركتهم وصعدتُ إلى شقتي، حيث لا أستطيع أن أتحمل «حر الصيف، وثقل الجُبة، وحرارة العمامة»، دخلتُ غرفتي فخلعتُ جُبتي وقمتُ بتعليقها في مكانها المعتاد خلف باب غرفة النوم، ثم وضعتُ الطربوش في صندوقه الخشبي الصغير، وارتديتُ جلبابًا أبيضًا، ثم خرجتُ من غرفة النوم إلى غرفتي الصغيرة التي أعددتُها للمذاكرة والمطالعة حيث بها مكتبة تحوي ذخائر الكتب ونفائسها، لم أمكثْ في الغرفة طويلاً، حيث وجدتُ أصواتًا متعددة ينادون عليَّ نداء من فقد ضالته.

وضعتْ زوجتي وأختي الغداء، وجلسنا جميعًا على سفرة واحدة، وإذ بابني «علي»يقول لي: يا أبي إن جدي «الأسطى» قد رحل عن عالمنا منذ سنين، لكننا نرى الناس يترحمون عليه، ويذكرونه بالخير إذا ذُكر اسمه، فما الذي كان يفعله «الأسطى» حتى يحظى بهذا الحب ؟

فقلتُ له: يا ولدي كان «الأسطى» رحمه الله تعالى، لايرى في وجوه العبادة أفضل من مواساة العاجزين، ورحمة البائسين، ودفع بطش الظالم عن المظلومين، فهو رجل أحبَّ كلَّ شيء فأحبه كلُّ شيء.

علي: لكن مازال في رأسي أمرٌ أتعجبُ منه كل العجب.

فقلتُ له: وما هو ؟

علي: أتعجبُ من أناسٍ أحبتْ «الأسطى» دون أن تراه.

فقلتُ له: إنَّ رجلاً كان يُؤوي الغريب، ويَصلُ القريب، ويُطعم الجائع، ويُكسي العاري، وينصر المظلوم، و يُعطي المحتاج عطاءَ من لايخشى الفقر، ليس بعجيب عليه أن ترى أناسًا تحبه دون أن تراه، فهذه أفعال يحبها الله ورسوله والمؤمنون؛لأنها من مكارم الأخلاق، و شيم الكرام.

علي: شوقتني يا أبي لمعرفة المزيد عن «الأسطى» فإن الحديث عنه شيق.

رضا: من الظلم أن يستمر الكلام، وقد وُضع الطعام، ألم تكن يا أبي أنت القائل: «إذا جاء الهرس وقف الدرس».

جلس الجميع حول السفرة التي تسع أهل البيت جميعًا، تلك السفرة التي لاتخلو يومًا من شيئين هما: «الأرز واللحم».

جلستْ أمي في منتصف السفرة تُوزع علينا قطع اللحم المطبوخ في تسبيكة البامية، وإذ بها تقول لحفيدها «علي»: كُلْ جيدًا حتى يكون ذهنك حاضرًا مع أبيك وهو يروي لك قصة «الأسطى».

علي: ياجدتي إذا مُلئتْ البطون، نامتْ العقول، وأنا لا أريد أن ينام عقلي، وأنا أستمع لقصة «الأسطى».

أمي: طول عمرك غلباوي ولسانك طويل.

علي: هو في حد يعرف يغلبك أنت ياجميل دا أنتي «مرات الأسطى».

أمي: ربنا يبارك فيكم ويحفظكم ويخليكم ليَّ يا أولادي انتم وأولادكم.

رضا: يا «تيته» الأكل هيبرد، نآكل وبعد كده نسمع الحكاية من البداية.

(2)

انتهينا من الطعام وقمنا جميعًا لنجلس في الغرفة الكبيرة المُعدة لاستقبال الضيوف، فجلستُ على الكرسي الكبير الذي يتوسط كراسي المجلس، وجلس جميع أفراد الأسرة حولي لم يغبْ منهم شخص، فجَلستْ أمي عن يميني، وزوجتي عن يساري وبجوارها ابنيها «رضا وعلي»، وجلس أمامي أشقائي الأربعة «فاطمة وعلي ومحمد وجهاد»، فهذه هي أسرة «الأسطى»، التي تعيش ببركته، فلله در القائل: «صلاح الآباء يدركه الأبناء».

أخذتُ بيدِ أمي وقلتُ لها: سوف أروي لهم قصة أبي فإنْ نسيتُ شيئًا أو أخطأتُ فيه فصوبي ليَّ ما وقعتُ فيه من خلل وزلل.

محمد: طب فين الشاي علشان يحلى الكلام؟!

جهاد: الشاي على النار؟!

أمي: ابدأ ياولدي.

(توطئة)

منذ أنْ قام القائد الفاطمي «جوهر الصقلي» بإنشاء مدينة القاهرة، لتكون مقرًا للخلافة الفاطمية، وهي محل أنظار الأغنياء والفقراء، ومحط رحال المهمشين والبسطاء؛ حيث فيها الشوارع العامرة، والحصون الساهرة، والعمالة الماهرة، والأرزاق الوافرة، فهي المحروسة بعين رب العالمين، ومن

سكنها من أولياء الله الصالحين، و«آل البيت الطاهرين»، والعلماء الربانيين العاملين؛ لذلك قصدها القاصدون من كل فج عميق للعمل في أسواقها، والتجارة في ربوعها، فلم تُغلق القاهرة أبوابها في وجه من قصدها.

ظل هذا هو دأب «القاهرة» على مر العصور وكر الدهور، تَفتحُ أبوابها للقريب والغريب، ولِمَ لا وهى مذكورة في كُتب الأوائل بأنها: «أم البلاد وغوث العباد»، وكما قصد القاهرة «التجار والعمال»، قصدها أيضًا «العلماء» لينهلوا من «أزهرها الشريف» ويتعلموا في مساجدها ومدارسها، كما قصدها «المستعمرون» طمعًا في خيراتها، فاحتلوا أرضها واعتدوا على أهلها وسكانها، فلم ينجح ذلك المستعمر المعتدي أن يقهر بجبروته وقوته «القاهرة»، بل هي التي قهرتهم ومن أرضها طردتهم.

البداية
أكتوبر عام «1936م»

يُعد هذا العام من الأعوام التي لم تُنس وستظل خالدة في ذاكرة تاريخنا المعاصر، ففي هذا العام تُوفيّ «الملك فؤاد» ملك مصر والسودان آنذاك، وعلى إثره ارتقى ابنه «الملك فاروق» عرش البلاد بعد أن تم تعيين مجلس وصاية عليه نظرًا لصغر سنه.

وفي العام نفسه قام «حزب الوفد» بالتشكيل الوزاري نظرًا لفوزه في الانتخابات البرلمانية وطالب بإجراء مفاوضات مع بريطانيا؛ لإعادة دستور«1923م» بدلاً من دستور «1930م» وانتهت المفاوضات بوضع معاهدة 26 أغسطس«1936م» في لندن.

لم يكن هذا العام عامًا فاصلاً في تاريخ مصر بإبرامها «معاهدة التحالف»، أو بوفاة «الملك»وارتقاء «ولي عهده»عرش البلاد فحَسْبْ، بل كان هذا العام عامًا فاصلاً في حياة «أسرة الأسطى» تلك الأسرة الفقيرة التي جاءت من قرية نائية من قرى «محافظة أسيوط» إلى أقدم أحياء القاهرة وأعرقها، بحثًا عن قوت يومها.

وإنْ شئتَ قلْ: جاءت هذه «الأسرة» من أقصى قرى الصعيد إلى قلب القاهرة وسُرْتِها، و قبلة الغادي والرائح، بنت النيل، الذي لم يُعرف عنها سوى الخبر الجميل، في استقبالها للتاجرالأمين، والعامل النبيل، والعالم

الجليل «بولاق أبو العلا» هذا الحي الذي اشتُهر على مر العصور وسالف الدهور«بشاطئه» الذي كان «مَرْسَى» للمراكب النيلية والصنادل الخشبية التي كانت تنقل البضائع والعمال والتجار.

استقر «والد الأسطى» مع أعمامه وأقاربه في «بيت الصعايدة» الكائن بحارة الفرن، أشهر حواري شارع «العدوية البراني»، ذلك الشارع الذي يُنسب إلى أبناء «بني عدي»أحفاد أمير المؤمنين الفاروق «عمر بن الخطاب».

بدأ والد «الأسطى» الشاب الوسيم، طويل القامة، ذا القوام الممشوق، والعضلات المفتولة، في البحث عن قوت يومه، ولم يكن أمامه سوى طريقين لاثالث لهما:

الطريق الأول: العمل مع بعض أعمامه في المهنة التي اشتُهرت بها «قريتهم» وهي التجارة في الذهب الأبيض «الثلج».

الطريق الثاني: العمل مع عمه الأكبر محروس «أبو الدهب» فتوة منطقة «الشيخ علي».

إلا أنه اختار الطريق الأول، رغم ما لديه من مواصفات جسمانية تؤهله إلى هذه الوظيفة.

بدأ «والد الأسطى» حياته الجديدة في القاهرة، وبعد عدة أعوام تزوج من ابنة عمه «فاطمة»، التي جاءت معه من الصعيد إلى القاهرة، لتعيش معه في غرفته الخشبية «بحارة العدوية»، صار «والد الأسطى» يصل الليل بالنهار في عمله، حتى أصبح المتعهد الوحيد لتوريد «الثلج» إلى «المدبح الكبير» بحي زينهم بمدينة القاهرة.

كان برًا بأهله، شهمًا، ذا رجولة ونخوة مع أهل بلده، كان يقابل إساءة من أساء بالعفو والصفح، كان ممن يدخلون البهجة والسرور على الناس، فيُحكى عنه أنه كان يشتري اللحم ويوزعه أسبوعيًا على أهله، وكان لا يبخل على أحد بمال معه، ولا يرد سائلاً يسأله، حتى أنه خلع «جبته الصوف» التي كان يلبسها في برد الشتاء، وأعطاها لرجلٍ طلبها منه، كان لا يركن للدنيا وما فيها من لذات والشهوات.

رُزق «والد الأسطى» بأبناء كُثر، فمنهم من مات جنينًا، ومنهم من مات سَقطًا، ومنهم من مات رضيعًا، ومنهم من مات شابًا، وهذا هو ابنه الكبير «شكري»، وقد أخبرتني جدتي أنها ولدتْ «أربعة وعشرين مرة»، مات لها «عشرون» ولم يبق من ولدها سوى «أربعة» هم بالترتيب الزماني: (درويش سامية «الأسطى» أشرف)، ومن الطريف أن كل هؤلاء «وُلدو» بالصعيد إلا «الأسطى» هو الوحيد الذي وُلد بالقاهرة.

(3)
«المولد»
يناير عام «1962م»

في ظلام الليل «الحالك»، وبرد الشتاء القارص، الأمطار تتساقط، والرياح تتصارع مع الغرف الخشبية الثمانية، التي بُنيت فوق سطح «بيت الصعايدة»، استيقظت «فاطمة» من نومها العميق، فلم يكن الشتاء وعوارضه سبب استيقاظها، لكن «آلام طلق الولادة» هى التي جعلتها تقوم على صرخة واحدة، فاستيقظ سكان «السطح» بأكمله ولم يكن في هذه الغُرف غريب، فهناك علاقة نسب وقرابة بين سكان «الغرف الثمانية»، توجهوا جميعًا إلى غرفة «فاطمة»، لينظروا ماذا حدث لها.

وقف الجميع على باب الغرفة، ولم يدخل سوى ثلاثة من النسوة، وبينما هم كذلك عند فاطمة لايملكون لها نفعًا ولايقدمون مساعدة.

تخرج «الحاجة سكينة» وهي أكبر السكان وحكيمة المكان، الكل ينزل على رأيها، لكبر سنها ورجاحة عقلها، وهي الأخت الكبرى «لفاطمة»، فأمرت «الحاجة» بإحضار «سنية الداية»، فجاءت سنية ترتعش من شدة البرد، فقامت «عيدة» بنت الحاجة الكبرى، القريبة في السن من خالتها «فاطمة» بإشعال البابور لتدفئة الغرفة، وأخذت أبناء فاطمة «درويش وسامية» ليكملوا نومهم بجوار أبنائها.

تعثرت حالة «فاطمة»؛ حيث اصفر وجهها، وسال العرق على جبهتها من شدة «ألم الطلق»، فطلبت «سنية» من النساء الحاضرات أن يَقمنَّ بتحمير «بعض الثوم» ليُسهلَّ عملية الطلق، فجاءت «كاملة» ابنة الحاجة الصغرى «بالثوم المحمر» ؛ لكنَّ الأمر قد ازداد سوءًا، فحالة «فاطمة» لاتسمح بالولادة الطبيعية.

الحاجة سكينة: كبرتي يا «سنية» وخيبتك بقت قوية !!!

سنية: وهي «فاطمة» ياحاجة بكرية، الله يكون في عونها من «ألم» الولادة ديا.

الحاجة سكينة: إيه العمل دلوقتي يا سنية ؟؟

سنية: مفيش حل غير المستشفى، هناك في «حكما وممرضين» يقدروا يتعاملوا مع الحالات المستعصية.

الحاجة سكينة: هاتي يا «عيدة» العباية والمنديل من جوا.

جاءت «عيدة» بعباية «الحاجة» السوداء، وشالها الأخضر الذي اشترته من أرض الحجاز في حَجْتِها الأخيرة، كما أحضرتْ «عيدة» للحاجة «منديلها الوردي» الذي لم يخلُ من مالٍ طول حياتها، أخذتْ «الحاجة»قرشًا، وأعطته «لسنية» وقالتْ لأحد أحفادها: اذهب مع خالتك إلى بيتها، ولاتتركها تمشي في ظلام الليل وحدها.

الحاجة سكينة: فين «سيد» ابني ؟

سيد: موجود ياحاجة.

الحاجة سكينة: الوقت اتأخر ياسيد، ولو بعتنا عيل صغير «لصادق العربجي» مش هيرضى يجي معاه بعربيته، اخطف رجلك هاتو على ايدك وتعالى.

سيد: وأنا هلاقي صادق فين دلوقتي ياحاجة ؟

الحاجة سكينة:نظرتْ له بشدة، وقالتْ له بنبرة فيها حدة، هيكون فين يعني!! هتلاقيه نايم على عربيته أمام محل «المُقدِّس» بتاع الفِراشَة.

ذهب «سيد» إلى المكان الذي قالتْ عليه «الحاجة»، فوجد «صادق» نائمًا على «عربته الكارو»، ملتفًا بلحاف من القطن.

سيد: الحاجة عايزاك ياصادق في مشوار.

صادق: أنا من عنيا «لستي الحاجة»، ثم أخذ عربته وذهب إلى البيت، ووقف أمامه في انتظار «الحاجة» ومن معها، وصعد «سيد» إلى البيت؛ ليخبر «الحاجة» بقدوم «صادق».

سيد: العربية واقفة تحت ياحاجة.

الحاجة سكينة: طب ادخل نادي أخوك «كامل» وجوز أختك من جوا، علشان تِنزلوا «بخالتك» وتركبوها العربية.

ركبت «الحاجة» وابنتها الكبرى «عيدة» وأخذا «فاطمة» في وسطهما، وركب معهم «الحاج عيد» زوج عيدة.

صادق: الف سلامة عليكي يا ستْ «أم درويش»، ربنا يقومك بالسلامة ويجعلك ساعة من عنده، أمال عم أبو درويش فين ؟؟

الحاجة سكينة: بايت في الشغل، اطلع بينا يا صادق بسرعة على «مستشفى فاروق وبطل رغي.

وصلوا إلى المستشفى فدخل «الحاج عيد» لإنهاء إجراءات الدخول، فقال له المسئول: لسه بدري على دور دخولكم.

الحاج عيد: بدري من عمرك ياجميل، أنا عمك «الحاج عيد» بتاع «جامع العدوية».

المسئول: ماحصلش الشرف ليَّ.

الحاج عيد: يبقى ما جربتش مسك عمك عيد، خذ هذه الزجاجة «هدية».

المسئول: مقبولة الهدية يابركة «العدوية»، لحظة وهتدخل «حالتكم» دي حالة «طوارئ مستعصية».

لم تمضِ بضع دقائق وكانت «فاطمة» على باب «كشف النسا»، وهذا هو الكشف الذي تخافه كل النسا، دخلتْ «فاطمة» غرفة الكشف وهي تستندُ «بيدها اليمنى» على حائط الغرفة، و بيدها اليسرى على كتف «عيدة»، أخذتْ الممرضة بيدِ «فاطمة» وقالتْ «لعيدة»: انتظري بالخارج، بعد دقائق خرجتْ الممرضة من الغرفة ووقفتْ على الباب تنادي مين مع الحالة «فاطمة علي».

الحاجة سكينة: خير يا بنتي طمنينا ؟..

الممرضة: فاطمة حالتها «مستعصية»ولاتسمح بالولادة الطبيعية، لازم تولد ولادة قيصرية.

الحاجة سكينة: مسكينة يا «فاطمة» ماتْلِك أكتر من عشرين عيل، «قيصرية قيصرية» المهم تقوم بالسلامة يا بنتي.

الممرضة: متخافيش يا أمي هتقوم بالسلامة، بس محتاجين حد منكم يمضلنا على قرار العملية، ويصورلنا بطاقته.

الحاجة سكينة: اخرجي يا عيدة «للحاج عيد» خليه يصور بطاقته ويدخل يمضي على القرار.

على الفور لم يتأخر «الحاج عيد» دخل ببطاقته وأنهى الإجراءات، ودخلتْ «فاطمة» غرفة العمليات، ثم دخل الطبيب ومساعدونه غرفة العمليات، ودخلتْ «فاطمة» في نوبة تخاريف البنج، ترك أحد المساعدين جزءًا من نافذة الغرفة مفتوحًا فتسرب منه برد الشتاء القارص إلى يد الطبيب، فارتعشتْ «يده» أثناء فتحه لبطن «فاطمة» فأصاب المولود بمشرطه في مقدمة رأسه.

الحاجة ومن معها خارج الغرفة ينتظرون «البشارة»، ومع قول المؤذن لصلاة الفجر «الله أكبر الله أكبر»، يخرج الطبيب ليبشرهم بنجاح العملية، فقال لهم: ألف مبروك ولد زي الفل، وهو وأمه بصحة جيدة؛ لكنه أُصيب في مقدمة رأسه إصابة صغيرة من المشرط، و غيرنا له على هذا الجرح الصغير، ما قولتوش بقى هتسموا العريس ايه؟

الحاجة سكينة: نسئل أمه... هتسموا الواد ايه يا فاطمة؟؟

فاطمة: شوفي إنتي يا حاجة عايزه تسميه ايه؟.

الحاجة سكينة:انت اسمك ايه يا دكتور.

الدكتور: اسمي «رضا».

الحاجة سكينة:خلاص هنسميه على اسمك رضا..... «رضا مصطفى محمد».

الدكتور: فاطمة مش هينفع تخرج دلوقتي، لازم تتحجز يوم؛ حتى نطمئن على جرحها، هي هتتنقل «العنبر» دلوقتي، وفي سرير للمرافق اللي هيكون معها.

الحاجة سكينة: هتباتي «عيدة» مع «فاطمة» وهروح أنا و«الحاج عيد»، والصبح هنبعتلكم الفطار.

عيدة: هنحتاج هدوم «لفاطمة» وابنها.

الحاجة سكينة: الصبح هبعتلِك «كاملة» ومرات أخوكي «رسمية».

غادرت الحاجة المستشفى وبصحبتها «الحاج عيد»، وظلت عيدة مع خالتها، فدخلت معها إلى العنبر، بعد أن قامت بغسل وجه خالتها، كان سرير فاطمة رقم «5»، وسرير عيدة رقم «6»، وهو السرير المجاور «لفاطمة»من جهة اليسار، وهذا العنبر كان له قصة من القصص التي ظلت خالدة في وجدان «الأسطى»، رغم أنه لم ير هذه «القصة» بعينه ولم يكن على وعي بأحداثها، إلا أنه دائمًا كان يروي لنا قصةهذا العنبر.

لما دخلت فاطمة العنبر كان السرير الذي قبلها رقم «4» من جهة اليمين، ترقد عليه «زينات» أوكما يقولون لها في حواري حي القلعة «أم البنات»؛ زوجة«المعلم دياب» صاحب أكبر مغلق خشب بالقاهرة.

ترقد «زينات» تبكي أمرها، وتشكو حالها للرائح والغادي، كانت تتمنى أن تكون البطن السابعة لها «ذكرًا»، إلا أنه لا يكون في ملك الله إلا ما أراد، فهو الذي ﴿**يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُور**﴾، استيقظتْ «زينات» قبيل شروق الشمس، ولم يستقظ في العنبر أحد سواها، فرأتْ على السرير المجاور لها ذلك «الطفل الأسمر» وأمه التي ما زالت متأثرة من تخدير «البنج»، والمرافقة لها التي تعاني مشقة السهر والانتظار طول الليل، عندئذٍ وسوس الشيطان«لزينات»، بأن تقوم بوضع «بنتها السابعة» مكان هذا الطفل، وتأخذه وتنصرف به؛ ليصبح «ديك البرابر»؛لأنه سيكون «الذكر» الوحيد على البنات الستة، وبالفعل نجحت في تنفيذ «خطتها»؛ حيث وضعتْ بنتها على سرير «فاطمة» وأخذتْ«رضا».

فرحتْ «زينات» فرحًا شديدًا، فقد تحقق حلمها وحلم زوجها «المعلم دياب» الذي لم يعرف حتى الآن ما نوع مولوده السابع، وسُرعانَ ما انتهت فرحة«زينات»؛ حيث جاءت «الرياحُ بما لاتشتهي السفنُ».

بعد أن خرجتْ «زينات» مرتبكة من العنبر لا تعرف كيف تسير ولا إلى أين تذهب، تدخل الممرضة في هذا التوقيت؛ للكشف على جرح الطفل«رضا»، وإذ بالمفاجأة تجد الممرضة الطفل قد تغير، فصرختْ بأعلى صوتها مستنجدة بأمن المستشفى.

قامت «فاطمة» و «عيدة» على الصراخ والعويل؛ ليجدا «رضا» قد تغير ببنت.

الممرضة: الأبواب كلها اتقفلت، والخاطفة لم تخرج من المستشفى، والبحث عنها جاري، لا تقلقوا.

فاطمة: استرها يارب، هات العواقب سليمة.

بعد غلق جميع الأبواب لم تجد «زينات» مكانًا تختبئ فيه سوى «دورة المياه»، الكل يبحث عنها فلم يكشفها سوى صريخ «رضا» من ألم جرح المشرط، فسمعتْ «عيدة» الصوت فتوجهت نحوه، وأخرجتها من «دورة المياه»، أخذتْ «عيدة» الطفل وأعطته للمرضة، وأمسكتْ «بزينات» وأخذتْ تضربها ضربًا شديدًا، وتسبها وتشتمها كعادة نساء بولاق في الخناقات.

لم يستطعْ أمن المستشفى والعمال أن يُخلِّصوا «زينات» من يد «عيدة»، فبينما هم كذلك، يدخل «الحاج عيد» ومعه «كاملة»، و«مصطفى أبو درويش» زوج «فاطمة»، فوقف «الحاج عيد» ونادى قائلاً: قومي ياعيدة.

تركتْ «عيدة» زينات وقامتْ، فقالتْ: دي خطفتْ «رضا»، وحطتْ مكانه بنت.

الحاج عيد: قومي خدي الواد وادخلي «لفاطمة»، ثم نظر الحاج عيد إلى زينات فوجدها تبكي بكاءًا شديدًا، لأن الأمن قد القى القبض عليها وسوف يقومون بتحويلها إلى «قسم الأزبكية»

أبو درويش: الستْ دي هيبهدلوها يا «حاج عيد» وباين عليها مش وش بهدله.

الحاج عيد: أنا شايف نخلص الموضوع ودي، ونسبها تمشي احنا برضو عندنا «وَلاَيا» وعفا الله عما سلف.

ذهب الحاج عيد إلى غرفة الأمن، وأنهى الموضوع هناك، وأخذ «زينات» وخرج بها، ثم قال لها: ليه خطفتي العيل ؟ مع اني مظهرك يقول: انك بنت أصول وعز ؟!!

زينات: أنا من القلعة واسمي زينات مرات «المعلم دياب» من أكبر تجار الخشب في بر المحروسة، خِلفتي كلها بنات، كان نفسي أجيب الولد اللي يشيل اسم «المعلم» بعد مماته، ويخلي باله من اخواته الستة، فلما شوفت الواد في العنبر، وأمه جنبه نايمة، الشيطان ضحك عليّ، وخلني أخده.

الحاج عيد: عفا الله عما سلف يا ستْ زينات، لكن يا بنتي هقولك نصيحة حطيها حلقة في ودنك: الناس اللي عندهم استعداد يبيعوا «الغالي والنفيس» زيك انتي وجوزك، علشان خاطر يجبوا «الواد»؛ لأني خلفتهم كلها «بنات»، لوفهموا إني «البنت» هبة من الله، وعطية من عطاياه، واستقبلوا هذا الأمر بالرضا والقبول، ربنا سبحانه وتعالى هيرزق البنت ديَّ بزوج يكون «أبر» لأبيها وأمها، من «الولد» الذي يريدون أن يدفعوا الغالي والنفيس من أجله.

دخلتْ «زينات» في نوبة بكاء.

أبو درويش: لاتبكي ياست «زينات»، انتي بترضعي والعِياط غلط عالطفلة.

أخذتْ زينات أغراضها من العنبر، بعد أنْ عرفتْ عنوان هذه «العائلة» ببولاق، ثم انصرفتْ، فقام «أبو درويش»، وأوقف لها تاكسي يأخذها إلى بيتها وقام بمحاسبته، ثم أعطى لزينات «خمسة جنيهات»تستعين بها على قضاء حوائجها، أونقطة لمولودها.

خرجتْ «فاطمة» وطفلها الأسمر ؛ لتعود إلى غرفتها «ببيت الصعايدة»، فستقبلها أهل الحارة بالزغاريد، وقامتْ «الحاجة سكينة» بتوزيع الشربات المخلوط «بماء الورد»، ثم مضتْ الشهور والأعوام، وجاءت «زينات»، لتزور «فاطمة» وأسرتها في بيتهم، بحي بولاق.

هنا وقفتُ أسئل نفسي سؤالاً: إن هذا الطفل قد أصابه الطبيب بمشرطه عند مولده في الأمس القريب، ثم يتعرض للخطف في اليوم الذي يليه، فماذا يخبئ الغد بين طياته لهذا «الطفل الأسمر» هل سيكون شبحًا يخشاه أم أملاً يتمناه؟؟

(4)
«النشـــأة»

نشأ «رضا» في كنف أبيه ابن البلد الشهم، وأمه التي تحمل في وجهها ملامح المرأة المصرية المُكافحة، فُطم «رضا» وهو ابن الثالثة وكان أول ما دخل في جوفه بعد فطامه «قطع من اللحم».

ظهرتْ عليه علامات النجابة، والخفة والسرعة، منذ صغره، وهذا ما جعله يأخذ عينًا كادت أن تودي بحياته، حيث خرجتْ به أمه إلى السوق، وإذ به يفعل فعلاً يدل على ذكائه فقالتْ له المرأة التي وقفوا عندها لشراء الخضار: انت سابق سنك يامضروب.

فاطمة: قولي بسم الله يا ولية.

عادت فاطمة إلى البيت بعد شراء الطلبات، قامتْ «الحاجة سكينة» بتوزيع المهام اليومية على النساء، فمنهم من تقوم بالغسيل، ومنهم من تقوم بالطبيخ، ومنهم من تقوم بتحويل المياه، وبينما كل واحدة مشغولة بما كُلفتْ به، يقع «رضا» من الدور الثالث؛ ليسقط على الأرض جثة هامدة، ارتفعت الأصوات بالصراخ والندب والعويل، أخذه «سيد» و«كامل» وذهبا به إلى «مستشفى بولاق».

أخذتْ «فاطمة» تصرخ أمام البيت ونساء الحارة من حولها، حتى نزلتْ الحاجة سكينة وقالتْ: أين «رضا»؟؟

عيدة: اخواتي يا حاجة طلعوا بي على المستشفى.

لم تمر ساعة من الزمان وإذ «بسيد» و«كامل» يدخلان الحارة في يدهما «رضا»، فاستقبلته نساء الحارة بالأحضان والزغاريد، فقالتْ الحاجة طمنوني يا ولاد ؟؟

كامل: لسانه اتفتح غرزتين، لكن هو كويس الحمد لله.

الحاجة: الحمد الله.

كان «أبو درويش» في هذا الوقت يعاني من مطاردة عمه له؛ حيث كان يريد منه أن يترك العمل في الثلج، ويعمل معه في الفتونة، لكن «أبو درويش» كان يرى أن عمل عمه «بلطجة» وليس «فتونة»، ظل عمه يطارده حتى يأس منه، فقرر التخلص منه.

في الصباح الباكر يخرج «أبو درويش»؛ ليبحث عن قوت يومه، وكان من عاداته الصباحية الجلوس على «قهوة الفلاح» هو وصبيانه قبل ذهابهم إلى «مصنع الثلج»،

فجاء عمه وجلس بجواره.

أبو درويش: ياقعدين يكفيكم شر الجايين.

المعلم: بنبرة تهكمية يقول لابن أخيه: عمك بقى شر يا معلم مصطفى ؟!!

ثم نادى بأعلى صوته واد يا كرم... انت يا زفت يا كرم.

كرم القهوجي: خدامك يامعلم.

المعلم: هات الشيشة بتاعتي، واعملي كوباية شاي تقيلة.

أبو درويش: هو الواد حمادة اتأخر ليه؟؟ روح يا أحمد شوفه خلينا نمشي من هنا؟

المعلم: واد ياكرم.

كرم القهوجي: نعم يا معلم.

المعلم: فَتَّحْ ودانك معايا، عايزك تخلق مشكلة«في القهوة» تشغل بيها «أبو درويش» وصبيانه.

كرم القهوجي: عُلمْ يا معلم.

قام كرم بافتعال مشكلة مع أحد الجلوس، فتعالت الأصوات، وتطاولت الأيادي، فقام الجلوس وقاموا بفض المشاجرة، وقام «المعلم» بوضع «علبة كبريت» مليئة بالأفيون والحشيش على تربيزة «أبو درويش»الذي قام هو وصبيانه لفض المشاجرة، ثم أرسل «المعلم» أحد صبيانه إلى «ربيع المخبر» مرشدًا عن حيازة«أبو درويش» للأفيون والحشيش.

جاء «ربيع المخبر» في صحبة أحد الضباط وبعض العساكر، فدخلوا القهوة.

الضابط: مين اللي كان بيتخانق؟

المعلم: دي مشكلة يا «بيه» بسيطة مع واحد من الزباين وخلصت الحمد لله.

ربيع: توجه إلى التربيزة التي يجلس عليها «أبو درويش»، فقال له: بطاقتك يا أخ.

أبو درويش: اتفضل.

ربيع: علبة السجاير والكبريت دول تبعك؟

أبو درويش: اه.

فتح ربيع علبة الكبريت، فوجدها مملؤة بالأفيون والحشيش.

أبو درويش: الحاجة دي مش بتاعتي.

ربيع: الكلام دا تقوله في القسم.

ذاع الخبر وشاع، وذهب أحد صبيان «أبو درويش» إلى البيت وهو يبكي ولا يستطيع أن يلتقط أنفاسه.

فاطمة: مالك يا أحمد ؟

أحمد: الحكومة قبضتْ على عمي «أبو درويش»، من على «قهوة الفلاح».

فاطمة: وقعتْ فاطمة من الخبر، وأخذتْ «عيدة» تصرخ من الخبر.

خرجتْ «الحاجة» وقالتْ لأحمد: احكيلي إيه اللي حصل، حكى لها أحمد الحكاية من أولها إلى أخرها، فعرفت أن هذه الحادثة من تدبير عمه، فأخذتْ تبكي وتقول: «ابن الكلب خرب بيت ابن أخوه».

ذهبتْ «الحاجة» إلى «قسم الأزبكية» هي وأبنائها والحاج عيد، فلما وصلوا إلى القسم، لم يجدوا مصطفى به، فذهب «سيد» يسأل عنه أين ذهبوا به ؟؟ فعرف أنه الآن في النيابة.

وصل الخبر إلى «الصعيد»، فجاء «الشيخ ماضي» أخو «أبو درويش الأكبر»، فور وصوله خبر حبس أخيه.

فلما وصل إلى القاهرة، ذهب إلى أكبر محاميها، الذي قال لهم: البراءة في هذه القضية إننا نعرف نجبله حكم بثلاث سنوات.

الشيخ ماضي: هي القضية صعبة لهذه الدرجة.

المحامي: الرئيس عبد الناصر، أصدر حكم بالمؤبد في قضية حيازة الأفيون والحشيش، لكن هنحاول نخفف الحكم إلى ثلاث سنوات، على إني القضية «تعاطي» مش «إتجار».

تم تحديد الجلسة النهائية التي سينطق فيها القاضي بالحكم على «أبو درويش» في هذه القضية التي اتُهم فيها ظلمًا؛ لرفضه العمل مع عمه، من أجل الحفاظ على كرامته، وكسبه للقمة عيشه من الحلال.

دخل القاضي فقام الجميع، فنادى الحاجب عن القضية الأولى، الكل في انتظار سماع حكم القاضي، يتمنون سماع براءة «أبو درويش».

القاضي: بعد الاطلاع على الأوراق المقدمة حكمتْ المحكمة حضوريًا على المتهم مصطفى محمد عبد الرحمن، بالسجن ثلاث سنوات مع الشغل، رُفعتْ الجلسة.

بكا الجميع فور سماع الحكم.

الشيخ ماضي: لاحول ولا قوة إلا بالله، صدق اللي قال: «يا ما في السجن من مظاليم»، حسبنا الله ونعم الوكيل فيمن ظلم أخي.

غادر الجميع المحكمة بعد أن قاموا بتوديع «أبو درويش إلى محبسه»، والحزن قد خيم عليهم جميعًا، بل خيم على أهل الحارة بأسرها.

الشيخ ماضي: يالا يا «فاطمة» جهزي هدومك إنتي والعيال، علشان نسافر البلد؛ لأني مش هينفع تفضلي في مصر لوحدك بعد اللي حصل.

الحاجة سكينة: أختي مش هتسيب مصر يا «ماضي».

الشيخ ماضي: مش هينفع يا حاجة تقعد لوحدها بالعيال هنا، وبعدين هي مش هتقعد عند حد غريب، دا بيت جوزها وأنا ابن عمها ومراتي أختك وأختها.

قام «عبد الحميد» شقيق «فاطمة» وقال: أختي هتسافر تقعد عندي لحد ما جوزها يخرج بالسلامة، ولا أريد أنْ أسمع كلامًا بعد هذا الكلام، مع احترامي للحاجة سكينة والشيخ ماضي.

ودعتْ فاطمة أهل الحارة وسافرتْ مع أخيها بأبنائها الثلاثة، صابرة راضية بقضاء الله، مرت الشهور والأعوام، وإذ بعام ونصف يمضي على «فاطمة»وأبنائها عند أخيها، وفي يوم شديد البرودة، إذ بباب «عبد الحميد» يطرقه طارق، فخرج لينظر من الطارق الذي جاء في ظلام الليل الحالك، وبرد الشتاء القارص، فوجده «سعد أفندي» موظف الجمعية الزراعية.

عبد الحميد: اتفضل يا سعد أفندي.

سعد أفندي: الفرج جالكم يا عبد الحميد، معايا خبر حلو ليكم، بس الموضوع لو تم ليَّ الحلاوة.

عبد الحميد: عنيا ليك يا «سعد أفندي»، بس خبر إيه؟؟ فرحنا.

سعد أفندي: في خبر منشور النهاردة في جريدة الأهرام بيقول: «الرئيس هيفرج عن بعض المساجين في عيد الثورة»، فيارب العفو يشمل «أبو درويش».

عبد الحميد: والله يا سعد أفندي لو حصل الكلام دا، وخرج «أبو درويش» هجبلك خروف.

لم تمضِ أيام على هذا الخبر الذي تلقاه «عبد الحميد» بالبشر والسرور، حتى جاءهم«مِرسَال» من القاهرة يخبرهم بأن «أبو درويش» شمله عفو الرئيس؛ لحسن «سيره وسلوكه».

مضى عام ونصف من الظلم، مضى عام ونصف من المعاناة، مضى عام ونصف من حرمان الأبناء من رؤية أبيهم، خرج «أبو درويش» بعد قضاء نصف المدة إلى الحياة، وهو كما هو لم يغيره ظلم عمه له، ولا مرارة الحبس والضيقة، بل ظلت نفسه سمحة طيبة، وطبعه هادئ.

(5)

عاد «أبو درويش» إلى حارة الفرن، وعادت حياتهم كما كانت؛ لكن هذه الظروف التي مر بها هو وأسرته كانت «سببًا» في حرمان أبنائه من التعليم، فعمل ابنه الأكبر «درويش» في مهنة النقاشة، أما «رضا» بدأ يعمل وهو «ابن السابعة»، فأرسلتْه أمه إلى ورشة الأسطى حسني الخراط، فلم يمكثْ هناك كثيرًا، ثم ترك هذه الورشة، وذهب مع أحد أقاربه ليعمل في «مصنع ملابس» بمنطقة «جزيرة بدران»، وكان عمله آنذاك ينحصر في خدمته «للأسطى حسين» الذي جاوزعمره «السبعين»، صاحب المصنع الذي كان يأتي في الصباح الباكر ليطمئن على أبنائه الذين يديرون المصنع بعد تقدمه في السن، ثم يجلس حتى صلاة العصر فينصرف بعد ذلك إلى بيته، فكان «رضا» يحضره من بيته في الصباح، ويذهب معه إلى بيته في المساء، ظل «رضا» هكذا حتى مات الأسطى حسين، فترك العمل بعد وفاته.

كانت «عيدة» تحب «رضا» حبًا شديدًا، وكان «رضا» يبادلها نفس الحب، وكان لايقول لها سوى«يا خالتي» رغم أنها بنت خالته، إلا أن «عيدة» سنها من سن أمه فكيف يناديها باسمها ؟!!

كان «لعيدة» ستة أبناء، وكان ابنها الأوسط «مصطفى»صديقًا «لرضا» ورفيقًا لدربه، ذهب «مصطفى» مع ابن عمته الأكبر الأسطى «أبو العلا» للعمل في «المصنوعات الجلدية»، وكانت العائلة بأكملها تحب «أبو العلا»

وتجله وتفتخر به؛ لأنه شارك في حرب أكتوبر عام«1973م»، وأُصيب في الحرب، وتم أسره، ثم أُفرج عنه.

كان الأسطى «أبو العلا» يعمل آنذاك عند أحد «أساطين» الصنعة، وكبار أسطواتها، وهو «الأسطى الجمال»، الذي كان يصدر «إنتاج مصنعه» إلى الخارج في أواخر الستينات من القرن الماضي، ومما يُروي عن عظمة هذا الرجل، أنه أرسل طلبية من الشنط الحريمي إلى «المانيا»، فقام المستورد الألماني برفضها لعلة ما، فعاد الشغل إلى مصر، فقام «الأسطى الجمال» بإرسال الطلبية مرة ثانية، ومعها رسالة مكتوب فيها:«أرسلنا الطلبية وفق المواصفات والمعايير المطلوبة فتم رفضها، فقمنا بإرسالها مرة ثانية؛ لتكون الطلبية هدية من مصنع الجمال إلى الشعب الألماني»، فقبل المستورد الطلبية، وقام بإرسال أحدث أنواع الماكينات آنذاك إلى مصنع الجمال، قائلاً: «هذه هدية الشعب الألماني لمصنع الجمال».

بدأ «مصطفى» ابن السابعة يشعر بالوحدة في العمل الجديد، فأشار على «الأسطى أبو العلا» أن يحضر معه ابن خالته «رضا»، فقال له: خليه يجي.

فمن مصنع الجمال كانت انطلاقة «الأسطى» مع هذه الصنعة، التي أصبح بعد ذلك أحد أعلامها، بدأ الطفل الأسمر العمل مع «الأسطى أبو العلا» وابن خالته «مصطفى» حيث مكثوا عامين في مصنع الجمال، ثم تركوه، وذهبوا ليعملوا عند علم آخر من أعلام هذه الصنعة وهو «الأسطى علي شلبي»، الذي كان يُلقب بـــ«أبو المُصدِّرين»، كان مصنعه«بعمارة العابدية» بشارع فؤاد، وكان يُصدر في هذا الوقت إلى «روسيا».

تعلق «رضا» بالأسطى علي شلبي، وأحبه حبًا شديدًا، كما تعلق بأحد الصنايعية الكبار في هذا المصنع وهو «الأسطى حامد أبوعلي»، ظل «رضا» وابن خالته أعوامًا في هذا المصنع الذي يضم كبار «أعلام الصنعة» آنذاك.

تميز رضا تميزًا ملحوظًا رغم صغر سنه، فلنجابته وذكائه كانوا يُرسلونه في بعض المشاوير المهمة، ويدل على ذلك ثقة «الأسطى علي شلبي» فيه حينما أرسله لأحد أقاربه بشارع درب البرابرة، ليأخذ منه مبلغ 14000 الف جنيه في منتصف السبعينات من القرن الماضي.

في منتصف عام «1976م» ترك «الأسطى أبو العلا» مصنع «الأسطى علي شلبي» ومعه صبيانه وأقاربه «رضا» و«مصطفى»، وذهب ليعمل عند علم آخر من أعلام هذه الصنعة وهو «الأسطى محفوظ»، وظلوا عنده حتى جاءهم خبر وفاة «الأسطى علي شلبي» في عام «1977م».

في الصباح الباكر من يوم الأربعاء شاع خبر وفاة «الأسطى علي شلبي» فعمَّ الحزن وخيم على وجوه أبناء الصنعة، فهو أحد أساطينها الكبار، سمع «رضا»بالخبر فما كان منه إلا أن أخذ ابن خالته «مصطفى» وذهبا إلى بيت أستاذهم «بحي الظاهر» ليودعوه إلى مثواه الأخير، ولم يلتفت أحد منهما، إلى غيابه من «العمل» دون إذن، قاموا بدفن أستاذ الأسطوات، ومعلم الأجيال بمقابر البساتين، ثم عادوا إلى «حي الظاهر» لإقامة العزاء، فوقفا «رضا ومصطفى»أبنا الخامسة عشر عامًا، مع أبناء «الأسطى علي شلبي» في الصوان؛ لأخذ العزاء كأنهما من أسرته تمامًا.

في صباح يوم الخميس ذهبا «رضا ومصطفى» إلى عملهما، فوجدا «الأسطى محفوظ» يجلس في مدخل المصنع، وبنظرة كلها حدة، وبنبرة فيها جفاء وشدة يقول لهما متهكمًا: الأسطوات غابوا امبارح ليه ؟

رضا: الأسطى بتاعنا مات، فواجب علينا نروح نحضر الجنازة و العزا.

الأسطى محفوظ: مفيش صبيان بتغيب من غير إذن.

رضا: «الأسطى علي» الله يرحمه زي أبونا؛ لأنه الأسطى بتاعنا، فحالات الطواري مش محتاجة إذن.

الأسطى محفوظ: طب كملوا الأسبوع في بيتكم انتم أجازة.

رضا: احنا هناخد أجازة على طول ومش جايين تاني، بس لينا حساب يومين اشتغلناهم.

خرجا «رضا ومصطفى» يتشاوران أين نذهب بعد أن تركنا العمل، فاستقر رأيهما على الذهاب إلى مصنع «الأسطى علي شلبي» ليقفوا مع أبناء أستاذهم بعد وفاته، وبالفعل ظلوا هناك حتى أتقنوا أصول الصنعة، فكان «رضا» متأثرًا بالأسطى «حامد أبوعلي»، وكان «مصطفى» متأثرًا«بالأسطى أبو العلا».

ظل عام «1977م» خالدًا باقيًا في ذاكرة «رضا»، ليس لأنه العام الذي مات فيه أستاذه، أو العام الذي ترك فيه المصنع الذي كان يعمل فيه؛ بل لأنه العام الذي كان سيفارق فيه الحياة.

في يوم 18 يناير عام «1977م»، قامت إنتفاضة شعبية، على نظام الرئيس الراحل محمد أنور السادات، بسبب ارتفاع أسعار بعض المواد

الغذائية الأساسية «كالخبز واللحم»، وبدأ العمال و البسطاء من المتضررين من هذا الغلاء يهتفون ببعض الشعارات قائلين:

«هما ياكلوا حمام وفراخ والشعب من الفول أهو داخ»

«هما بيلبسوا آخر موضة، واحنا بنسكن عشرة في أوضة»

«عبد الناصر ياما قال خللوا بالكم من العمال»

«سيد مرعي ياسيد بيه كيلو اللحمة بقى بجنيه»

اندس بعض المخربين بين العمال وقاموا بإشعال النار في بعض المؤسسات، ووسائل المواصلات، فشاع الخبر وذاع أن القاهرة تحترق، وصل الخبر إلى مصنع «الأسطى علي شلبي» الكائن في عمارة العابدية بشارع فؤاد، فقام الأستاذ مسعد نجل الأسطى علي، بغلق المصنع وأذن للعمال بالانصراف، فإن الوضع أصبح مُقلقًا للغاية.

خرج «رضا» وابن خالته «مصطفى» من شارع فؤاد إلى شارع التوفيقية، ثم وصلا إلى «باتا رصيف»، ومكانه بالقرب من شركة الكهرباء «بمنطقة الإسعاف»، بدأت الأحداث تغلي والأتوبيسات معطلة، والترماي قد حرقه المخربون، وإذ «رضا ومصطفى» يضربان مع الناس في الشرطة، وكان «رضا» نشنجي نمرة واحد، فصوب حجرًا نحو أحد العساكر فأصابه في منخيره، فقام عسكري آخر بضرب خزنة 500 رشه، نحو «رضا» فأصابته، فوقع على الأرض غارقًا في دمائه، حمله «مصطفى» وبعض الناس، معتقدين أنه قد فارق الحياة، ساروا به محمولاً على أعناقهم داخل حواري بولاق وأزقتها، وبدأوا يهتوفون بأصوات مرتفعة وبقلوب يملئها الجراح، وأعين تغمرها الدموع، قائلين:

لا إله إلا الله الشهيد حبيب الله..... لا إله إلا الله «رضا» الاسود حبيب الله

دخلوا به الحارة غارقًا في دمائه، فاستقبلته نساءة الحار، بالعويل والصراخ، فأخذه «الحاج عيد» وصعد به إلى غرفتهم، فاجتمع الرجال والنساء بالبيت؛ ليطمئنوا عليه، خرجت «عيدة» من غرفتها على صرخة واحدة «ابني.. ابني».

الحاجة سكينة: خدوا الواد على المستشفى، الواد دمه هيتصفى.

الحاج عيد: مش هينفع ياحاجة نروح بيه المستشفى، ممكن يتحبس.

الحاجة سكينة: وإيه العمل دلوقتي يا عيد ؟

الحاج عيد: هبعت أجيب «مسعد التمرجي».

جاء مسعد التمرجي وفي يده شنطته القماش، بها أدواته، دخل مسعد الغرفة فوجد «رضا»، مُلقى على السرير والدماء تسيل من جميع جسده، فقال لهم: لازم يروح المستشفى، الموضوع كبير ولازم محضر.

فطن الحاج عيد إلى لؤم مسعد وأنه يريد أجرة زيادة، فقال له: هراضيك يا مسعد شوف الواد الأول، وهتمشي مرضي على الأخر.

وبالفعل قام «مسعد» بإخراج قدر كبير من الرش ولم يتمكن من إخراج البعض الآخر، وظلت هذه الرشات ساكنة في جسد «رضا» إلى أن توفاه الله.

سمع بهذه الحادثة، الحاج رفعت الابن الأكبر للحاجة سكينة، والمُلقب بـ «برنس العائلة»، صاحب أحد أكبر مصانع الأزياء بمصر في السبعينات، كانت العائلة بأكملها «رجال ونساء وأطفال» ينتظرون ذلك

اليوم الذي يأتي فيه «الحاج رفعت»، وكان غالبًا يأتي إلى زيارة عائلته «بالحارة» في يوم عطلته«يوم الأحد»، فكان يُدخل البهجة والسرور عليهم جميعًا صغارًا وكبارًا، فكان بارًا بأهله لاسيما أمه «الحاجة سكينة» التي أخذها إلى حج بيت الله أكثر من عشر مرات، دخل«الحاج رفعت» على «رضا» وأعطاه جنيهًا، وكذلك أعطى خالته «فاطمة» خمسة جنيهات، فكان رحمه الله كالشجرة المثمرة التي تغدق ثمارها على أهلها.

بعد أسبوع عاد الاستقرار في البلد، وهدئت الأوضاع، وقام «رضا» من على فراش المرض وعاد إلى العمل، ومرت الأعوام و«رضا» في المصنع لم يتركه، فلما انتهت طلبيات التصدير في نهاية السبعينات، أغلق أبناء «الأسطى علي شلبي» المصنع، فقام الأسطوات الكبار الذين تربوا في هذا المصنع، ببداية حياتهم، فقام «الأسطى أبو العلا» بفتح ورشة بمنطقة الفحامين، وقام «الأسطى حامد أبو علي» بفتح ورشة بمنطقة إمبابة، فذهب «رضا» للعمل مع «الأسطى أبو العلا»، ومع بداية الثمانينات كان«لرضا» حكايات وأحداث غيرت مسار حياته.

«6»

في بداية الثمانينات انتقلتْ أسرة «الأسطى»، من بيت «الصعايدة» ببولاق إلى «منطقة إمبابة»، بدأت الحالة الصحية «لمصطفى أبو درويش» تتدهور، وفي نفس الوقت صبيانه ومعارفه وأقاربيه يزيدون حوله؛ لشدة كرمه ورجولته معهم، فهو مقصد كل من يأتي من الصعيد إلى القاهرة، وبدأ يجلس في «مصنع الثلج» ولا يخرج بنفسه على العربيات كما كان يفعل سابقًا، وفي يوم من الأيام، قام أبناء «المعلمة أم محمد» كبيرة المدبح بضرب «أحمد» ابن شقيق «أبو درويش»، فجاء لعمه وحكا له ما حدث معه في المدبح.

أبو درويش: مفيش «لوح ثلج» هيدخل المدبح بكرة، غير لما يجيبوا العيال هنا يعتذروا ويتضربوا.

يُعد هذا القرار أزمة لمعلمين المدبح ؛ حيث إن لحومهم سوف تتعرض للفساد إنْ لم يكن هناك ثلج؛ لأنه لم تكن الثلجات الكهربائية منتشرة آنذاك، في الصباح الباكر الكل في «المدبح»ينتظر عربيات الثلج، تأخرتْ على غير عادتها، فقاموا بالاتصال على المصنع، فأخبروهم بقرار «المعلم أبو درويش»، فجاءت «المعلمة أم محمد» صاحبة القوام الممشوق، والجمال الفتان، وبصحبتها كبار معلمين المدبح، كانت أم محمد تحب «أبو درويش» ولمحت له بالزواج، وكانت تتمنى له الرضا يرضى.

أم محمد: لينا زمن يا معلم مصطفى مش بنشوفك، ويوم ما نشوفك يكون في مشكلة.

أبو درويش: عيالكم ضربوا ابننا، والعين بالعين والسن بالسن، وخلاصة الموضوع العيال اللي اتكاتروا على أحمد وضربوه، يجوا هنا ويضربهم، غير كده مفيش «لوح ثلج» هيدخل المدبح.

أم محمد: كلامك ماشي يا سيد الناس، هما دول العيال اعمل فيهم اللي يرضيك.

أبو درويش: الحق هو اللي يرضيني، واد يا أحمد زي ما ضربوك اضربهم.

قام أحمد وضرب من ضربه.

أبو درويش: قبل ما توصلوا «المدبح» يا معلمة، العربيات هتكون هناك بالثلج.

أم محمد: عايزين نشوفك يامعلم في المدبح.

أبو درويش: الصحة مابقتش مساعدة يا معلمة.

أم محمد: ربنا يديك الصحة والعافية يا أبو الجدعنة والشهامة.

انصرف الناس وحُلت المشكلة، وأخذ أحمد حقه، وذهب إلى المدبح مرفوع الرأس، وحفظ أبو درويش للمصنع بأكمله كرامته، وظل جالسًا في المصنع مع بعض صبيانه وأصدقائه، فقال له «عامر» وهو أحد صبيانه من أبناء بلدته، تعالى يا خال نآكل لقمة، انت من الصبح ما كلتش وبتاخد علاج، وعمال تشرب في شاي وسجاير، لازم تآكل حاجة تسند بها طولك.

أبو درويش: يالا بينا ياعامر.

عامر: هناكل ياخال عند بتاع الكباب اللي في ميدان السيدة.

أبو درويش: هات العربية نروح بيها.

ذهب أبو درويش وعامر إلى المطعم لا يدخله سوى علية القوم، فجاء الجرسون مستنكرًا من شكلهما، كيف بأناس يلبسون جلاليب صعيدي يجلسون في هذا المكان، ففطن أبو درويش لما يدور في ذهن الجرسون، فأخرج خمسة جنيهات وأعطاها للجرسون قائلاً له: هذه لك باقشيش، أكل أبو درويش وعامر وذهبا إلى البيت، وبدأ المرض يتمكن من جسد الأسد، فبات طريح الفراش لا يتحرك.

منذ أنْ جاء أبو درويش إلى القاهرة عام «1936م»، لم يلتفتْ إلى هذا اليوم، الذي سيكون فيه طريح الفراش، كان مبدأه «اصرف ما في الجيب، يأتي ما في الغيب»، لم يكن عنده شيء خلال هذه السنوات التي قضاها في القاهرة، سوى قطعة أرض على مساحة 200 متر، بمدينة الأعلام أمام نادي الزمالك، وقد قام ببيعها قبل مرضه بعشر سنوات بـــ (400) جنيه، وأرسل الأموال لإخواته في البلد من أجل شراء أرض، غير أنه كان يرسل لهم الأموال بصفة مستمرة.

خطر بباله أن يسافر إلى البلد؛ ليطالب إخوته بحقه؛ فهو يعطي طول حياته، فمرض فذهب ليأخذ من حقه، لا من جيوبهم، فقيل له: «ليس معك ما يثبت أن لك عندنا حقوق»، أو قالوا له: «ليس لدينا شيئًا نعطيك إياه»، الله أعلم بما حدث ودار بينهم، لكن عند الله تجتمع الخصوم، وعنده تُرد المظالم، عاد «أبو درويش» وقد خيم الحزن على وجهه، فاشتدد مرضه،

وأصبح لا يفارق سريره، فأخبر زوجته «فاطمة» أنه يريد أن يرى «الحاجة سكينة»، فجاءت «الحاجة»، فلما دخلتْ عليه نظر إليها وتبسم، فاقتربت منه وأخذت رأسه على صدرها، فلفظ أنفاسه الأخيرة على صدرها، قامتْ «الحاجة» بتسبيل عيناه، فجاء الرجال وقاموا بتجهيزه وقاموا بدفنه في مقابر «العائلة» بالسيدة عائشة.

تكفل «رضا» بمصاريف البيت بعد وفاة والده، وأصبح هو العائل لأمه وشقيقه الأصغر، بعد وفاة والده بشهور ذهب لأداء الخدمة العسكرية، فتوسط له «الأسطى أبو العلا»؛لكثرة معارفه بالجيش، فجعل جيشه سهلاً، كأنه لم يدخل؛ حيث تم نقله إلى «سلاح الإشارة»، وكانت خدمته بـــ«سنترال المعادي».

«7»

بدأ يدور في ذهن «رضا» فكرة الاستقالالية، والاعتماد على نفسه في بداية «تأسيس ورشة» خاصة به، وبالفعل بدأ «رضا»، مشروعه الصغير في «بداية الثمانينات»من القرن الماضي، ولم يكن لديه آنذاك سوى «بنك خشب» صغير، و«ماكينة خياطة» كان يسميها «عزيزة»، فتح أمام بيتهم في «إمبابة»، إلا أن الأمور والأحوال لم تستقر معه، ليظل مشروعه قائمًا، فقام بتخزين معداته، وبكل «أمل في المستقبل ورضا بقضاء الله»، يقول: سيأتي الوقت المناسب الذي ستخرج فيه هذه المعدات إلى النور.

خرج «رضا» من البيت، يبحث عن ورشة يعمل فيها«ومشروعه لايزال في عقله لم يمت»، وصل خبر بحثه عن عمل إلى أستاذه علم الأعلام، شيخ الصنايعية، المخترع المتفنن، العبقري، الذي لولاه ما عرفتْ إمبابة وضواحيها «تصنيع الشنط»، الأسطى «حامد أبو علي»، فأرسل إلى تلميذه «رضا الأسمر» ليعمل معه في ورشته بمنطقة إمبابة.

ذهب «رضا» لأستاذه، فقال له الأستاذ: من النهاردة يا «رضا» انت المسئول عن الورشة وإدارتها، وأنا لا دخل لي بالصنايعية، انت المسئول عن كل شيء، فمن هنا بدأ يسطع نجم الأسطى، وأصبح الجميع «صغار وكبار» لاينادونه إلا «بالأسطى».

اعتمد «الأسطى حامد» على «الأسطى» اعتمادًا كليًا في إدارة ورشته، فأثبت«الأسطى» كفاءته، وكان عند حسن ظن أستاذه، بل ذاع صيته في المنطقة وعرفه الأهالي؛ لأنه لم يترك واجب عزاء، أو فرح في المنطقة إلا وذهب لأداء الواجب، فعرفه الناس وأحبه كل من في المنطقة؛ ذلك لأن أغلب العمال من «الصنايعية والصبيان» من هذه المنطقة.

خرَّج «الأسطى» أجيالاً، كانوا صغار السن، وعملوا معه في ورشة الأسطى «حامد أبو علي» حتى تعلموا الصنعة وأتقنوها، فصاروا من كبار أسطواتها، بل صار لهم تلاميذ، فهذا مما منَّ الله به على «الأسطى» أنه رأى صبيانه، وصبيان صبيانه وهم «أسطوات»، وكان «الأسطى» يحبهم، وهم يحبونه، كما كانت علاقة «الأسطى» بأهاليهم علاقة صداقة ومحبة ومودة، وهذا ما يؤكده علاقة «الأسطى» بالحاج «محمد الريس».

كان الحاج «محمد الريس»، مقاول يعمل في طائفة المعمار، وكان لديه أبناء «ثلاثة»، وكانت ورشة «الأسطى حامد» في بيتهم، فأرسلهم الحاج «محمد الريس»؛ ليتعلموا الصنعة في هذه الورشة، وكان«الأسطى» شديدًا في التعامل مع الصغار، لاسيما الذين تركوا المدرسة، فكان يضرب الأخوة الثلاثة، من أجل أن يتعلموا، وكانت أمهم ترى أبنائها يُضربون ولا تتكلم؛لأنها تعلم أن «الأسطى» يضربهم «ضرب المُهذِّب لاضرب المُعذِّب»، وفي يوم من الأيام غاب أكبر الثلاثة «أحمد»عن الورشة وقال: أنا مش هنزل تاني «الأسطى» بيضربني كل يوم.

الحاج محمد الريس: بيضربك علشان تتعلم.

أحمد: أنا هشتغل أي حاجة بس مش هروح الورشة تاني.

بينما أحمد يبكي وهو يتكلم مع أبيه، يطرق بابهم طارق، فقال له أبوه: افتح الباب، فتح الباب فوجد «الأسطى»أمامه، فبكى ودخل يحتمي في أمه هيبةً وخوفًا من «الأسطى».

الأسطى: عامل ايه يا حاج محمد.

الحاج محمد الريس: بخير طول ما أنت بخير يا اسطى.

الأسطى: الواد أحمد مش راضي ينزل ليه.

الحاج محمد الريس: خايف منك، علشان بتضربوا.

الأسطى: أنا بضربوا علشان يتعلم ياريس.

الحاج محمد الريس: عارف يا اسطى انك بتضربوه علشان مصلحته، وأنا بقولك أهو عيالي الثلاثة، اعتبرهم عيالك «كسر وأنا أجبس»، بس ماحدش يضربهم غيرك يا اسطى.

أخذ «الأسطى» أحمد ونزل به إلى الورشة وعلمه أصول الصنعة هو وإخوته وكل من كان في سنهم، وأصبحوا الآن أسطوات كبار.

كان «الأسطى حامد» يأتي يوم السبت؛ليحاسب «الأسطى»، وفي يوم من الأيام قال الأستاذ لتلميذه: انت مش ناوي تتجوز ولا ايه ياض يا رضا.

الأسطى: انت عارف يا اسطى أبويا لما مات أنا بقيت المسئول عن البيت، فربنا يسهل.

الأسطى حامد: انت مش بتكسب قليل، وبعدين خليها على الله، ربك كريم، انت بس انوي وربنا هيفتح عليك.

عندما عاد «الأسطى» إلى البيت أخبر أمه بحديث «الأسطى حامد»، فقالتْ له: سوف أبحث لك عن عروسة.

الأسطى: أشرف فين ؟

فاطمة: أخوك نايم من الصبح بعد ما اتهرى من العِياط.

الأسطى: كان بيعيط ليه؟

فاطمة: عايز شنطة مدرسة، وهدوم جديدة.

الأسطى: صحيه من النوم يا أمي، مش هينام النهاردة غير والهدوم الجديدة عنده.

استيقظ «أشرف» من النوم، فأخذه «الأسطى» لكسوته، ثم قال له: بكرة بإذن الله هعملك شنطة مدرسة، مفيش حد في مصر كلها شايلها، بات«أشرف» يحلم بهذه الشنطة، وفي اليوم التالي جاء «الأسطى» بالشنطة، وكان عند كلمته صَنع له شنطة متميزة لم تكن مع أحد؛ حيث قام بكتابة اسم «أشرف» على الشنطة بالحروف الإنجليزية، كيف جاءته هذه الفكرة، بل كيف جاء بمن يكتب له هذه الحروف، كل هذا لا يجعلني أقف عنده لأفكر كيف كان، ولكني أقف عند رعايته وحبه لأخيه الصغير، وحرصه على إدخال البهجة والسرور عليه.

ذهبت فاطمة إلى بولاق، لتزور أختها «الحاجة سكينة»، ثم فتحت معها موضوع زواج«الأسطى».

الحاجة سكينة: عندي عروسة حلوة ليه، من البلد.

فاطمة: مين يا حاجة؟

الحاجة سكينة: كريمة بنت ابن عمه.

فاطمة: طب هقوله.

أخبرتْ فاطمة «الأسطى»، فقال لها: طالما «الحاجة» هي اللي اخترتها يبقى خلاص أنا موافق.

اتصلت الحاجة سكينة بابن أختها والد العروسة بالبلد وأخبرته، فوافق ؛ لأن الكبير والصغير يحترم كلمة الحاجة سكينة، وينزل على رأيها.

سافروا جميعًا إلى الصعيد وتزوج «الأسطى» من بنت ابن عمه، وجاءت معه لتعيش في بيتهم الجديد بمنطقة قريبة من «إمبابة» تُسمى «بشتيل»، لم يترك «الأسطى» أمه وأخيه في إمبابة بمفردهما بعد زواجه، بل جاء بهما ليعشا معه في «بشتيل»، فهو رب الأسرة والعائل الوحيد لها بعد وفاة أبيه.

«8»

ظل الغزال الأسمر مع أستاذه حتى بداية «التسعينات»، ثم بدأ يفكر في مشروعه مرة أخرى، فقام باستخراج معداته وبدأ العمل ليكون في موعد مع نقلة نوعية، بدأ «الأسطى» مشروعه في بيته بمحل صغير مساحته (3 × 3)، بدأ«الأسطى» العمل وكان معه شقيقه «أشرف» وبعض الصبيان، فبدأت الطلبات تأتي إليهم من حيث لا يدرون، حتى وصل إنتاج ورشته الصغيرة في منتصف التسعينات إلى«1000شنطة» في الأسبوع.

توسع نشاط«الأسطى» وبدأ مشروعه يزداد نجاحًا، توسعتْ تجارة «الأسطى» وبدأ يتعامل مع كبار التجار، وبدأ يعرض منتجاته في جمع فروع «عمر أفندي» في جميع أنحاء الجمهورية، وذلك من خلال مكتب «الكابتن ميمي» أحد أعلام تجارة المصنوعات الجلدية بمصر، كما كان يُوزع منتجات ورشته في محلات شارع «كلوت بك»، ومحلات «شارع الأزهر»، ومن المواقف التي تتعلق «بتجار شارع الأزهر»ولاأستطيع أن أنساها وهو:

كنتُ ابن «الثمانية أعوام» فذهبت مع «الأسطى» إلى «شارع الأزهر»؛ حيث كان يتعامل آنذاك مع واحد من أكبر التجار هناك اسمه:«الحاج مهدي»، جلستُ بجوار «الأسطى» داخل المحل، فإذ بالطلاب الأفارقة الذين يدرسون في «الأزهر الشريف» يدخلون المحل للشراء، فقال لي «الأسطى»:

دول طلاب الأزهر، جايين من آخر بلاد الدنيا علشان يدرسوا دين ربنا، عايزك تشد حيلك علشان تيجي تدرس هنا في الأزهر معاهم.

الحاج مهدي: هو ابنك دا في الأزهر يا أسطى ؟

الأسطى: اه ياحاج مهدي كان في مدرسة خاصة، وبعدين نقلته الأزهر علشان هو شاطر وحافظ قرآن.

خرج«الأسطى» من محل «الحاج مهدي»، وأنا أمسك يده، فذهبنا لشراء أشياء من أمام مسجد «سيدنا الحسين»، فدخلنا المسجد، وصلينا العصر الذي وجب وقته، وبعد الانتهاء من الصلاة، قلتُ «للأسطى» بعفوية الأطفال جامع ايه دا ؟

الأسطى: دا جامع «سيدنا الحسين» ابن بنت سيدنا محمد رسول الله ﷺ.

أخذني«الأسطى» ودخل بي إلى «مقام الإمام الحسين» الذي دفن به «الرأس الشريفة»، فوجدتُ عددًا كبيرًا من الناس، فكنتُ في حالة ذهول، ولا أدري ماالذي يفعله هؤلاء الناس ولماذا يأتون إلى هذا المكان، فقلتُ«للأسطى»:هي الناس دي بتيجي هنا ليه؟

الأسطى: الناس دي بتحب سيدنا النبي ﷺ، و مش معاهم فلوس يروحوا يزورا سيدنا النبي ﷺ في المدينة، فبيجوا يزورا ابن بنته، علشان هو حته منه.

خرجتُ مع أبي من المسجد فوجدتُ لوحة على الباب مكتوب عليها «حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ، أَحَبَّ اللهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا».

أصبح الذهاب إلى التجار مع أبي وعمي من الأشياء التي تسعدني، بل أنتظرها بفارغ الصبر، فكان «عمي أشرف» يأخذني معه إلى محل «عم السيد» بالسيدة زينب، وكان «عم السيد» مدرسًا لمادة الفرنساوي، إلا أنه ورث المحل عن أبيه، وكان له أختًا تعمل بوزارة الصحة وكانت تأتي بجوابات علاج على نفقة الدولة للفقراء والمساكين، ذهب «الأسطى» إليهم في يوم من الأيام، لاستخراج جواب علاج لأحد الفقراء الذين كانوا يسكنون بحارتنا.

كان «عمي أشرف» هو المسئول عن التعامل مع التجار، وكان «الأسطى» يذهب إليهم نادرًا، وفي يوم من الأيام ذهبتُ مع «الأسطى» إلى محل الأستاذ فؤاد الببلاوي، وكان رجلاً كبيرًا يشبه البشوات الذين يظهرون في الأفلام، وكان هذا اليوم في نهاية الموسم، فعندما دخلتُ أنا و«الأسطى» عليه، قال له: عايز ايه يا أخ؟

الأسطى: أنا رضا الأسمر أخو أشرف، و النهاردة موعد الدفعة.

الببلاوي: أنا معرفكش، ابعتلي أشرف.

الأسطى: دا أنا صاحب الورشة.

الببلاوي: قولتلك معرفاكش، ابعتلي أشرف، يالا المقابلة انتهت، اطلع بره.

خرج«الأسطى» وهو يضحك من طريقة الأستاذ الببلاوي وطرده له، فأخذني وذهبنا إلى محل «الخواجة» الذي كان يتعامل معه «بشارع فؤاد» وأثناء سيرنا في الشارع قال لي: شايف يفطة المحل دي يا مصطفى؟

فقلت له: نعم.

الأسطى: أنا معايا في جيبي فلوس كتير، وليَّ عند الزباين فلوس أكتر، بس للأسف مش عارف ايه اللي مكتوب في اليفطة؛ لأني «أمي»، ثم قال لي: اوع تبقى زي حالاتي ذاكر وشد حيلك، ايه بقى اللي مكتوب على اليفطة ؟

فقلت له: مكتوب ملابس «الرمل».

الأسطى: «الرملي» مش «الرمل» يا ابن العبيطة.

ثم ذهبنا إلى تاجر آخر، كان يتعامل معه «الأسطى»، وكان هذا التاجر لايفارق «فندق أمون» وسهراته الحمراء.

دخلنا المكتب فوجدنا أصحاب الورش جاءوا أيضًا لتصفية الحسابات، جلس «الأسطى» في غرفة الاستقبال، فجلستُ بجواره، وبجوارنا عدد من أصحاب الورش، فخرجتْ إلينا فتاة حسناء، وقالتْ للجميع: كل عام وأنتم بخير «الأستاذ هشام» هيكون في انتظاركم غدًا في تمام الساعة الحادية عشر مساءًا «بقاعة حفلات فندق أمون» في ميدان سفنكس، بالمهندسين.

رد عليها أصحاب الورش، والفرحة تعلو وجوه بعضهم، بإذن الله تعالى وكل عام وحضرتك بخير»، وإذ بـــ «الأسطى» يقف ويقول للحسناء:«ياأستاذة قولي للأستاذ هشام»: «رضا» لايذهب إلى هذه الأماكن، وأقوليله «رضا» بيجيب الشغل المكتب، يبقى فلوسه ياخدها من المكتب مش من الخمارات، وجلس «الأسطى»وانصرف الباقون، وبعد دقائق جاءت «الحسناء» وفي يدها ظرف به حساب «الأسطى»، فعرفتُ حينئذٍ أن المبادئ لا تتجزأ.

توسع «الأسطى» في تجارته وربح الكثير من الأموال، وأصبح لديه من المعدات ما يقوم بتشغيل مصنع كبير، وذاع صيته في الصنعة وكانت ورشته أشبه بالمدرسة، فكان الصغير والكبير يعمل معه، فكان إنتاج الورشة أسبوعيًا «1000شنطة»، يعني لو هيكسب صافي 5جنيه يبقى مكسبه 20 ألف جنيه في الشهر، لم يلتفت «الأسطى»لتلك الأموال ولم تغيره وظل كما هو طيب القلب لين الجانب، كان يستخدم هذه الأموال في أعمال الخير، فكان لا يحب أن يرى حزينًا من المسلمين، فكان يدخل البهجة و السرور على الناس، وكان يقضي الدين عن المدينين، ويُفرج كربة المكروبين.

وجلستُ مع نفسي أتأمل كيف لورشة صغيرة تنتج «١٠٠٠شنطة رجالي» في الأسبوع، فإن هذه ظاهرة تحتاج إلى تأمل، ذلك لصعوبة الموديلات الرجالي، وقلة الإمكانيات آنذاك، فظل هذا الأمر يشغل حيزًا من تفكيري حتى التقيتُ بواحد من أساطين الصنعة فقال لي:

«ليس من العجيب أن ورشة يديرها«الأسطى رضا الأسمر» تنتج 1000 شنطة في الأسبوع»، نعم لم يكن مع «الأسطى»إمكانيات؛ لكن كان معه كفاءات، فكان يحسن توظيفهم، وهذا ليس بغريب على من تربى على يد أستاذ الأساتذة العبقري الأسطى «حامد أبو علي»

ثم قال لي: يا ولدي الناس في صنعتنا هذه على أقسام:

الأول:شخص يُحسن الصنعة ولا يحسن الإدارة.

الثاني: شخص يُحسن الإدارة ولا يحسن الصنعة.

أما «الأسطى رضا الأسمر» فكان أستاذًا يُحسن الصنعة والإدارة. من هنا تعلمتُ أن حال الناس في مختلف «المهن والحِرف» الصناعية لايخرج عن أحد شخصين:

الأول: شخص أتقن قواعد صنعته، وأخذ أصولها عن أربابها، فهذا الشخص يتحكم في «صنعته» كيفما شاء وقتما شاء، مع إنجازه للعمل في أسرع وقت، وأقل جهد، وأكمل إتقان.

والثاني: شخص بليد الفكرة، غرته الشهوة، لم يكتمل نضجه في صنعته، ولم يتعلم على أرباب مهنته، بل عرف شيئًا وغابت عنه أشياء، فهذا الشخص تحكمه صنعته وهو لايحكمها، وهذا واضح جلي في عمله الذي لم يُنجز إلا بأطول وقت، وأكثر جهد، وعدم إتقان.

رغم أن صنعة «الأسطى» مربحة إلى حدٍ لا بأس به، إلا أنه لم يظهر عليه أي مظهر من مظاهر الغِنا أو الثراء، ولم يفكر في المستقبل، وظل يعيش هو وأبنائه في شقة صغيرة، ورفض شراء أرض كان ثمنها معه، كما ذهبتْ زوجته في مرة لشراء بيت كان سعره«12000» جنيه، فرفض وقال لها: البيت هو بيت الآخرة.

وبعد أعوام رأيتُ تلك الأرض الذي رفض شرائها بـــ «25000»، تُباع أمام عيني بـــ«900 ألف جنيه، كما رأيتُ البيتَ الذي رفض أن تشتريه زوجته بـــ«12000» يُباع أمامي بـــ«300 ألف جنيه»، فكان هذا هو حاله مع الدنيا، وكأن لسان حاله يقول: «إن العيشَ هو عيش الآخرة».

تزوج شقيق «الأسطى»أشرف من بنت عمته، وكان موظفًا بالجمعيات الاستهلاكية، ولما ترك وظيفته وقف في ظهر أخيه «الأسطى»فكان أشرف «للأسطى» بمثابة العين التي يرى بها، وظل «أشرف» يقف في ظهر «الأسطى»، وفي يوم من الأيام نشب بينهما خلاف، بسبب رجل كان يتعامل معهم، وعليه أموال متأخرة، ومع ذلك يريد شغل وبضاعة من «الأسطى»، إلا أن «أشرف» رفض أن يعطيه بضاعة قبل سداد الأموال المتأخرة، فقال «الأسطى» لأخيه: اللي فيها لله عمرها ما تغرق.

أشرف: الشغل ما يعرفش العواطف، دي كده سبهلله يا أسطى.

مرت الشهور بل الأعوام، ولم يسدد هذا الرجل المبلغ الذي عليه، وكان هذا الرجل من «أساطين الصنعة» وكان لديه تجارة واسعة، ثم دارت عليه الدائرة وخسر كل أمواله، وكان «للأسطى» عنده مبلغ ليس بالقليل، فجاء الرجل «للأسطى»، وحدد موعدًا لسداد المبلغ، وكتب على نفسه «شيكات» بالمبلغ وأعطاها «للأسطى»، مرت الشهور وجاءالوقت المحدد، فلم يسدد الرجل المبلغ، ومرت شهور أخرى، وإذ «بالأسطى» يصله خبر مرض هذا الرجل، فذهب إليه زائرًا وليس مطالبًا بأمواله وكنتُ معه في هذه الزيارة، دخلنا على الرجل فوجدناه قد أُصيب بشلل في يده ورجله، فرح الرجل بزيارة «الأسطى»، فأخذ «الأسطى» يداعبه بطريقته المعهودة.

فقال الرجل للأسطى: أنا يا اسطى زي ما انت شايف، نايم عالسرير ومش معايا فلوس ادفع المبلغ اللي عليَّ، لكن عندي «تَلَت ماكينات خياطة» ممكن تاخدهم.

الأسطى: أنا جاي اطمن عليك مش جاي على فلوس، وبعدين مش هاخد ماكينات ولا حاجة، انت بكرة تفتح ورشتك فهتحتاج «للماكينات»، أنا هأصبر عليك، وبإذن الله أزمة وهتعدي.

خرجنا من بيت هذا الرجل وكان ابنه معنا يوصلنا، فأخرج «الأسطى» «الشيكات» من محفظته وقام بتمزيقها أمام ابن الرجل، ثم قال له: قول لابوك «الأسطى» مسامحك في الفلوس اللي عندك.

فقلتُ للأسطى: انت ليه قطعت الشيكات ؟

الأسطى: يا ابني«ارحموا عزيز قوم ذل».

* * *

من هنا بدأ «الأسطى» يتفرغ للورشة، و«أشرف» يتفرغ للتوزيع والتعامل مع التجار، ثم بدأ «الأسطى» بوضع قيم أخلاقية وقوانين تعليمية للصغار والكبار داخل الورشة، فكان يهتم بالأشبال الصغيرة الذين تركوا التعليم وجاءوا للعمل معه، وكان يسميهم «الحرافيش»، وكان كثيرًا من هؤلاء الأشبال لايستطيعون أن يتحملوا العمل مع «الأسطى»،

فكانوا يتركون الورشة؛ لأنهم تركوا مدرسة وجاءوا إلى مدرسة.

فكان «الأسطى» يقول للصبيان: «اللي مش بيروح مدرسة الورشة مدرسته». وكان يقول للصنايعية الكبار: «العيال دي أمانة في رقبتكم تعلموهم، وهتلاقوا الثواب عند ربنا في ميزان حسناتكم يوم القيامة».

وكان «الحب» من أهم المبادئ التي كان يرسخها «الأسطى» في نفوس الصنايعية، فد خل «الأسطى» في يوم من الأيام الورشة فقال له أحد العاملين: «عايزك في كلمة يا اسطى».

الأسطى: تعالى ياحبيبي خير.

الصنايعي: يا اسطى طول ما أنت مش موجود في الورشة فلان مش بيشتغل، وفلان بيفضل يقضيها هزار وضحك.

الأسطى: يا ابني انت لو مالكش خير في أصحابك اللي انت قاعد معاهم في الورشة أكتر من قعدتك مع أهلك، يبقى مالكش خير فيَّ أنا، فيا ابني نصيحة لله لما حد من أصحابك في الورشة مايشتغلش انصحه لله، وما تجيش تقولي تاني، لأني صديقك هو اللي باقيلك مش صاحب الورشة.

ظن الصنايعي أن «الأسطى» سوف يكافئه على نقل أخبار الورشة له، فتفاجأ برد «الأسطى»، الذي يريد غرس القيم والأخلاق داخل الورشة، وكان «الأسطى»، يقول دائمًا للصنايعية الكبار: «صبيانكم في الورشة زي عيالكم»، وكان يقول للصبي الصغير: «الأسطى بتاعك في الورشة زاي أبوك في البيت»، فكان «الأسطى» يُعلم هذه الأخلاق للصنايعية عمليًا، فكان يحب أساتذته ويحترم الأحياء منهم، ويترحم على ميتهم، ويزور أبنائهم.

وفي يوم من الأيام جلستُ أنا و«الأسطى» مع مجموعة من الأسطوات الكبار من طبقة أساتذته، فتكلم أحدهم على الأسطى «حامد»أستاذ «الأسطى» بكلام لايليق، فرأيتُ الغضب في عين «الأسطى»، وكان لا يخشى في الله لومة لائم، فقام وأخذ يعدد مناقب أستاذه«الأسطى حامد»

الذي لولاه ما عرفتْ إمبابة وضواحيها تصنيع الشنط، ثم خرجنا من هذا المجلس وإذ به يقول لي: الناس دي يا ابني كبيرة في السن بس فاشلين.

أنا:ليه يا اسطى ؟

الأسطى: يا ابني الأسطى «حامد»علم نص صنايعية إمبابة هما عملوا ايه بقى ؟!، يابني الأسطى «حامد» كان مخترع يمسك حتة الصاج يعمل منها جهاز.

أنا: انت يا اسطى بتحب عم حامد أوي.

الأسطى:طبعا مش أبويا، الأسطى بتاعي يبقى أبويا.

أنا: يعني انتم كمان في صنعتكم عندكم أسانيد.

الأسطى: ياض الإسناد مش عندكم في العلم بس، دا كمان عندنا في صنعتنا لازم تتعلم على ايد حد، ومش أي حد لازم يكون أسطى كبير وخبرة، وإلا هتبقى حمار طول عمرك، يعني أنا مثلاً اتعلمت الصنعة من الأسطى «علي شلبي»، والأسطى «حامد»، وهما الاتنين اتعلموا الصنعة من الإنجليز، يعني سندي عالي أوي، فأخذ يضحك معي ويترحم على أساتذته.

هذه القيم والأخلاق التي كان يتحلى بها «الأسطى» هي التي جعلتْ الرجل والمرأة والكبيروالصغير والغني والفقير والمسلم والمسيحي، يحبونه؛ لأنه كان يتحلى بشهامة ابن البلد الذي يتعاون مع غيره على البر والخير، وكان يتمتع بحكمة العاقل الذي سَخَّر حياته لخدمة الناس، وكان لديه إنسانية المسلم الذي يحب لأخيه ما يحب لنفسه، أما قلبه فكان عامرًا بالحب، والحنان، والصفاء، والفرح، والمرح.

فإذا نظرتَ إلى معاملة «الأسطى» مع أهل القرية التي يعيش فيها، ومعاملته مع أهل الحارة التي يسكن فيها، ومعاملته مع أهل بيته، ومعاملته مع العمال في ورشته، عرفتَ أنه كان إنسانًا بمعنى الكلمة.

معاملة الأسطى لأهل قريته.

كان «الأسطى» رحمه الله يحزن حزنًا شديدًا إذا رأى فقيرًا«مسلمًا كان أو مسيحيًا»، فكان يرفع ضيق عن الغريب والصديق، وكان يحب الخير للغير، وكان يساعد من يعرف ومن لم يعرف، بكل شهامة ومن غير ندامة.

معاملة الأسطى لأهل حارته.

الحارة جزء من القرية لكن معاملة «الأسطى» لأبناء حارته ظهرتْ بشكل واضح؛ لأن سكان الحارة أقل من سكان القرية، فكان«الأسطى» يتعامل معهم «كمعاملة الوالد لولده، والأخ لأخيه، والابن لأبيه»، المسلم والمسيحي على السواء، يحكم بينهم بالعدل، فكان يقف مع المظلومين وينصرهم، ويرد الظالمين عن ظلمهم«وإن علت أصواتهم، ولمعت سيوفهم»، فكان رحمه الله تعالى لايخشى في الله لومة لائم، كان لايترك أهل حارته في الأفراح والأحزان، فقد سَخَّر حياته لخدمتهم.

معاملة الأسطى لأهل بيته.

كنا عندما نسمع صوته نترك كل شيء ونجلس في سكينة ووقار ليس خوفًا منه، ولكن هيبة له، كان حنونًا يحب الفرح والمرح، ما حرمنا من شيء، وما بخل علينا بشيء، في مرة من المرات أعطاني مبلغًا من المال لشراء

كتب، ولم يكن في بيتنا غير هذه الأموال وقال العلم أفضل شيء ننفق فيه المال، والله لم ينس عباده.

كان «الأسطى»يُكرم الضيف لوجه الله، جاءنا ضيف ولم يكن في بيتنا طعام وليس عندنا أموال، فاستلف أموالاً ووسع على ضيفه وأكرمه، فأكرمنا الله ووسع علينا.

كان يشتمنا إلا أننا كنا نتلذذ بشتيمته لنا، فوالله كان يجعلنا نبكي ونضحك في آن واحد.

معاملة الأسطى للعمال في ورشته.

كان الاسطى إنسانًا بمعنى الكلمة، يحب لأخيه ما يحب لنفسه، بل كان يُقدم مصلحة الغير على مصلحته، كان يتعامل مع عماله على أنهم أبنائه، بل كان يقدمهم على أبنائه، في يوم من الأيام قام بصرف المرتبات لجميع العمال، ولم أحصل «أنا وإخوتي» على مرتباتنا فقال لنا: العامل لازم ياخد حقه قبل ماأحط جنيه في جيبي، وانتم تصبروا عليَّ أنا مش هطير، وبعدين الورشة دي بتاعتكم هو أنا بشتغل لمين ؟!.

عندما جلستُ أحلل تلك الشخصية وجدتُ أنها شخصية يغمرها الحب، كما أن المكون الرئيسي لهذه الشخصية الحديث القدسي الذي يقول:«الخَلق كلُّهُم عيالي فأحبّكُم إليّ أنفعكم لعيالي».

كان «الأسطى» جنابًا أجل، وكهفًا أظل، ملجأ للفقراء والمساكين، ومحط رحال للبسطاء والمهمشين، كان لا يفرح بالموجود، ولا يحزن على المفقود، كان يحب الخير للغير، فكان يرفع الضيق عن الغريب والصديق،

سخر حياته لخدمة الناس، فكان يقدم مصلحة الناس على مصلحته، كان يحب الصالحين، كان يُعطي الناس من أجل رب الناس، لامن أجل أن يمدحه الناس، كان يقابل الإساءة بالعفو والصفح، كان يحب الفرح والمرح.

وهذا الكلام ليس مبالغة في وصف هذا الرجل، فسوف أروي لكم مجموعة من المواقف تؤكد لكم أن هذه الأوصاف التي وصفتُه بها قليلة على ما فعله وقدمه في حياته.

«9»

«سامح» ابن الخامسة والعشرين، أحد تلاميذ صبيان الأسطى، في بداية مشواره عندما قرر أن يخوض تجربة فتح ورشة مستقلة به، طرق كل الأبواب، وذهب لمن كان يظنهم من الأحباب، وطلب منهم أن يكونوا له أدلاء على الصواب، فلم يجد عندهم إفادة ولا جواب، فظن «سامح» أن مشواره في هذه الصنعة، قد انتهى قبل أن يبدأ، جلس «سامح» على المقهى، وأخذ يشعل السيجارة الأولى، ثم أشعل الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة.

انتبه «رجب القهوجي» لحال سامح، فاقترب منه وقال له: مالك يا ابني مهموم ليه؟

سامح: الدنيا ماشية معايا بالعكس ياعم رجب، أنا على وش جواز، وأبويا كبرفي السن، وأمي تعبانه، قولت أفتح ورشة واعمل مصلحة آكل منها عيش، فرحت للأسطوات اللي كنت بموت نفسي على شغلهم، علشان حد فيهم ياخد بيدي ويساعدني لكن كلهم ادوني ضهرهم، رغم انهم الا سطوات بتوعي.

رجب: طب انت جربت تروح لأستاذ الأسطوات بتوعك؟

سامح: تقصد مين؟

رجب: قصدي أستاذ الكل «وشيخ الصنايعية» بمنطقتنا الأسطى«رضا الأسمر»، روح قوله ظروفك وهو هيقولك تعمل إيه.

ذهب سامح إلى «الأسطى»، وأخبره أنه يريد أن يفتح ورشة، ويريد أن يتعرف على تجار يتعامل معهم، فأخذه«الأسطى» وعرَّفه على التجار، وأرشده إلى الطرق السديدة في العمل.

عاد سامح إلى المقهى، والبهجة تعلو وجهه، فقال له رجب: الأسطى عمل معاك إيه؟

سامح: عمل معايا اللي عمري ماكنت أتصوره، ودلني على الطريق وبإذن الله هفتح الورشة واشتغل من بكرة.

رجب: مش قلتلك يا ابني «الخير باقي في أمة النبي ﷺ ليوم القيامة».

سمع الأستاذ حسن المحامي الحوار الذي دار بين سامح ورجب فقال لهما:«لاداعي للاستغراب من فعل «الأسطى رضا» فهو رجل يحب الخير لكل الناس، ولا ينتظر مقابل على ما يفعله؛و قلبه عامر «بالحب»، والقلب الذي يُحب دون سبب ويعطي من غير سبب لا يعرف«الأنانية»؛ لأن «الحب والأنانية» لايجتمعان في قلب واحد.

* * *

وقد تكرر ذلك المشهد أمامي مع شخص آخر، ففي يوم من الأيام جاء «أحد» الشباب من «منطقة منشية ناصر»«للأسطى» في بشتيل، والمسافة بين المنطقتين ليست بالقصيرة، فجاء الشاب وقال للأسطى: أنا قررت أفتح ورشة، علشان تعبت من الشغل عند الناس، بس مش معايا فلوس.

الأسطى: شوفت مكان تفتح فيه يا ابني ؟

الشاب: ماشوفتش لسه.

الأسطى: تعالى معايا يا ابني نوصل لحد البيت نجيب مفتاح الورشة واللي عايزه ربنا هيكون، ناداني «الأسطى» فأحضرتُ المفتاح وذهبت معه هو والشاب إلى الورشة، وكانت الورشة مغلقة لعدم وجود شغل، فتحت الورشة، فقال لي«الأسطى»: هات أحسن شاكوش عندنا، وأحسن مقص، وأنضف رخامة، وهات جراب سكينة كويس، وشوف حتة زنجة تفصيل جديدة، وهات مسطرة متر، ومسطرة 60، ومسطرة 30.

أحضرتُ هذه الأشياء ووضعتها على تربيزة كبير في الورشة، فقال «الأسطى» للشاب: ده كل اللي اقدر أساعدك بيه، ولو كان معايا فلوس عمري يا ابني ما كنت هتأخر عليك، عايزك تدور على مكان صغير وابدأ اشتغل وتوكل على الله.

الشاب: يا اسطى انت عملت معايا فوق اللي أنا كنت متوقعه وزيادة، انت يعتبر قصرت عليَّ نص المسافة.

الأسطى: شد حيلك وربنا يوفقك.

* * *

توسع «الأسطى» في تجارته وربح الكثير من صنعته، لاسيما بعد تعاقده مع شركة «فايزر للأدوية»، التي كانت سببًا في شرائه ورشة أوسع من ورشته الصغيرة، كما قام بشراء معدات حديثة، كل هذا التطور لم يغير «الأسطى» بل ظل كما هو يحب الخير للغير، ويرفع الضيق عن الغريب والصديق.

في يوم من الأيام كنتُ أعمل في الورشة، فدخل«الأسطى» الورشة وقال لي: سيب الشغل اللي في ايدك وتعالى.

فقلتُ له: على فين يا اسطى؟

الأسطى: هتروح ورشة عمك «الأسطى سعيد» عنده شوية شغل عايزين يتخيطوا، خيطهمله، علشان هو مش لاقي ماكنجي يخيطهم.

فقلتُ له:طب وشغلنا دا يا اسطى اللي فاتحين فيه مين هيخيطوا؟!

الأسطى: يا بني الراجل قاعد أكتر من شهرين مش شغال، فماتعرفش إيه ظروفه، أما إحنا الحمد لله ربنا كارمنا وشغالين، روح خلص شوية الشغل اللي عنده وهو هيراضيك، وربنا هيكرمنا هنا، وشغلنا هيخلص في معاده، اللي فيها لله يا ابني عمرها ما بتغرق.

فقلتُ: سبحان الله كأن «الأسطى» يحب لأخيه الذي لم يعمل منذ شهور أن يعمل، فكأنه يحمل همه، ولم لا، والنبي ﷺ يقول: «لا يؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

* * *

ومما يدل على صفاء قلب «الأسطى» وتسامحه مع جميع الناس، حتى مع من أساء إليه، موقفه مع ذلك الشخص الذي وقع في أزمة فجاء إليه.

كان هناك شخص بينه وبين «الأسطى» سوء تفاهم، فتعطلتْ ماكينة الخياطة الخاصة بهذا الشخص، فأرسل هذا الشخص «للأسطى» رجلاً من طرفه، وأخبر «الأسطى» أن ورشتهم تعطلتْ وهم في حاجة لاستكمال الشغل على ماكينات «الأسطى» في ورشته؟

فقال لي «الأسطى»: افتحلهم الورشة علشان يخيطوا شغلهم.

فقلتُ له، يا اسطى دا الشخص دا عمل كذا وكذا وكذا، وبعد دا كله نفتحلهم ورشتنا يخيطوا الشغل كده عادي؟

الأسطى:يا ابني مش علشان خاطره هو، علشان خاطر مرتبات الناس اللي شغاله عنده، افهم يا ابن الكلب، مش قولتلك اللي فيها لله عمرها ما بتغرق.

كان «الأسطى» يقدم مصلحة الناس على مصلحته، في يوم السبت وهو آخر أيام الأسبوع، والشغل في مرحلة التشطيب النهائية، يأتي أحد صبيان «الأسطى» ويخبره بأن شغله في المرحلة النهائية، لكنه وقف على اكسسوار، ويصعب شراءه الآن؛ لأن المحلات قد أُغلقتْ، وشغله لابد أن يذهب به إلى التاجر اليوم، من أجل مرتبات الصنايعية.

الأسطى: هات يا محمود الاكسسوار بتاعنا، وشطبوا هنودي الشغل يوم الاتنين.

محمود: يا اسطى دا احنا شغلنا فاضل عليه ساعة ويخلص، نوقفه ليه ليوم الاتنين!

الأسطى: لازم «فلان» يودي الشغل النهاردة علشان يجيب فلوس يقبض الناس، أما احنا ربنا مسهلها معانا، مفيش مشكلة لما الشغل يروح يوم الاتنين.

«10»

شيخ الحارة وظيفة من وظائف الدولة القديمة التي لم يكن لها وجود الآن في مجتمعنا المعاصر؛ لذلك كثير من الشباب لم ير «شيخ الحارة» إلا عبر شاشات التلفاز من خلال الأعمال القديمة، التي قامتْ بإبراز هذه الشخصية وتحديد مهامها، ففي ظل ما يكابده الناس من ضيق وتعب، ومشاغل متعددة للحياة، أصبح لدينا أناس يشبهون الآلات في جمودها، حيث قامت تلك الأعباء بنزع الجانب الروحي و الأخلاقي لدى بعض الناس، فأصبحوا لا يفكرون إلا في أنفسهم فقط؛ لكن الخير باق مهما سطع نجم الشر، فمن هذا المنطلق كنا على موعد مع «شيخ الحارة» في عصر لم يكن فيه للحارات مشايخ، إنه«الأسطى» الذي وهب نفسه لخدمة الناس، فكان مولعًا بقضاء حوائجهم، وهذا فضل الله عليه؛ لأن لله عبادًا خلقهم لحوائج الناس يَفْزَعُ النَّاسُ إليهم في حوائجهم، أولئك الآمنون يوم القيامة.

صارت قضية الصرف الصحي من أخطر القضايا التي تشغل بال كل فرد من أفراد الحارة؛ حيث إن الآبار القديمة لم تعد صالحة في ظل الكثافة السكانية، والتطور المستمر، والمشكلة تتطور، والحال يتدهور، واليوم الذي يأتي أسوأ مما قبله، عندئذٍ اجتمع وجهاء الحارة وكبارها، وبدأوا يفكرون في الأمر، واتفقوا على إنشاء خط صرف جديد، لكنهم اختلفوا في كيفية الإنشاء هل يصلون هذا الخطالجديد بالخط القديم الذي كان موجودًا في

أول الحارة؟ أم يقومون بإنشاء خط مستقل من أول الحارة إلى آخرها دون الارتباط بالخط القديم ؟

اتفق كل الحاضرين على توصيل الخط الجديد بالخط القديم، وذلك إنجازًا للوقت وتوفيرًا للنفقات، بينما جاء رأي «الأسطى» مخالفًا لرأي الجميع، فقال لهم:«الخط القديم متهالك، ومنسوب المياه هيكون أعلى من وسط الحارة وآخرها، ودا هيخلينا نقع في نفس المشكلة اللي احنا قاعدين دلوقتي علشان نشوف حل ليها.

لم يلتفتْ أحد لكلام «الأسطى»، بل قالوا له في المجلس:«لاتعطل المراكب السائرة يا أسطى»، فقال لهم: افعلوا ما شئتم والله المستعان.

لم يمر عام على إنشاء خط الصرف، إلا وتحقق ما قاله «الأسطى» وحذر منه، فأصبحت«الحارة» تعيش مأساة جديدة مع خط الصرف.

لم يوجه «الأسطى» أصابع اللوم إلى أصدقائه، بل جلس أحد عشرة سنة، يتابع مختص التسليك، وصيانة المواسير، وتطوير الخط، حتى منَّ الله على «الحارة»، بالصرف الحكومي.

ولم أنس هذا المشهد الذي رأيتُ فيه أغلب بيوت الحارة، غارقة في المياه بشكل يشبه البرك والآبار ؛ ذلك لأن مواسير الصرف قد تهالكتْ وبها سدد، ولايوجد من يقوم بتسليكها، فبدأ الناس يتوافدون إلى بيتنا واحد تلو الآخر، يريدون من «الأسطى» أن يتصل لهم بمختص التسليك؛لأنه يرفض المجيء.

وبالفعل اتصل «الأسطى» على «عبد الواحد» مختص التسليك، ولم أر أعجب من هذه المكالمة، فقد جمعتْ بين الضحك والعتاب والتبكيت والشتيمة، وعلى إثر هذه المكالمة جاء مختص التسليك؛ حيث كان لا يرفض «للأسطى» طلبًا، وكان ينزل على أمره، فاستقبله «الأسطى» على أول الحارة بالشتيمة المصحوبة بالدعابه والضحك كعادته.

عبد الواحد: يا اسطى الناس بتتعبني في دفع الفلوس.

الأسطى: اللي مش عايز يدفع سيبك منه، وأنا هديلك اللي انت عايزه.

أخذتُ أتعجب من فعل «الأسطى»، فقلتُ له: المياه بعيدة عن بيتنا، فما دخلنا بالاتصال بالرجل ثم الوقوف معه، ثم الدفع لمن لا يريد أن يدفع، ما شأننا بهذا الأمر ؟!

الأسطى: احنا عشنا في المرار دا كتير، فلازم نحس بالناس، وبعدين في ناس تعبانة مش هتعرف تمشي والشارع غرقان ميه.

أنا: طب تدفع ليه من جيبك فلوس زيادة، احنا زينا زي الناس؟!

الأسطى: ياريت يا ابني كان معايا فلوس كنت دفعت للشارع كله، علشان لا يبقى في خناقات ولا مشاكل بين الناس، وبعدين أنا قلتلك «اللي فيها لله عمرها ما بتغرق».

* * *

مشاكل الحارة لا تنتهي، ففي يوم من الأيام تعالت الأصوات واحْتَدّ الكلام بين«سعيد همبكا»و«مدحت الفسخاني»، فتبادل الفريقان السباب،

ووقف كلٌ منهما أمام بيته ينتظر الأقارب والأحباب، للمجاملة في هذا الحال والانتصار على الجار، وإظهار قوة كل فريق على الآخر.

في ظل هذه الأجواء وقف فريق من المتخاذلين يشاهدون ويرقبون الموقف في الحارة من بعيد دون تدخل منهم، فإنهم يمتنعون عن خوض تجربة حل الإشكال، إما لخوف أو لعدم اهتمام، فبينما الناس على الحالة يستعدون لخوض المعركة، وقلوبهم للكره والبغض حاملة، وللعفو والحب فارغة، يخرج «الأسطى» خادم الحارة وراعيها، وكابح قوى الظلم والشر فيها، القائم على شئونها، والراعي لسكانها، والمُقرَّب لأهلها، والحصن المنيع لها من أعدائها.

فإذ بالجميع آذان صاغية، فأنهى«الأسطى» الخلاف بحكمته وهيبته، فبات الفريقان في أمن وأمان وحب وسلام.

كان «الأسطى» عونًا للفقراء والأغنياء، ومحط رحال المهمشين والبسطاء، رأيتُ أحد «الأغنياء» من أهل الحارة يقف في نافذة شرفته يستغيث «بالأسطي» بعدما اشتعلتْ النيران في بيته، قائلاً: «الحقني يا رضا الحقني يا رضا».

ورأيتُ رجلاً فقيرًا يأتي إليه من مكان بعيد يستغيث به من ظلم جيرانه، فترك«الأسطى» مصالحه وذهب معه لحل المشكلة.

والتقيت برجلٍ آخر يعرفني وأعرفه بالشبه يسكن في حارتنا، لكن العلاقة بيننا لاتتجاوز السلام، ركب معي المواصلات في يوم فسلم عليَّ وقبلني وبدأ يتحدث معي فقال لي: والدك «الأسطى رضا» ليه في رقبتي جميل عمري ما هنساه.

أخذتُ أفكر ماذا فعل «الأسطى» مع هذا الرجل حتى يقول لي هذا الكلام، فقلت له:ماذا فعل «الأسطى» معك ؟

الرجل: في يوم أنا كنت في الشغل، وبعدين في ناس كنت متخانق معاهم، الناس استغلت عدم وجودي وراحوا البيت عندي يشتموا ويزعقوا، وكمان عايزين يضربوا عيالي، مفيش حد من «أهل الحارة» قالهم عيب البيت مافهوش حد من الرجالة، الكل وقف يتفرج أو يقول أنا مالي، فخرجلهم «الأسطى» فقال لهم كلمة واحدة: اللي ليه حق هياخده بالأدب، واللي بيحصل دا قلة أدب، امشوا دلوقتي وعيب اللي بيحصل دا، البيت مافيهوش رجالة، لما وقف «الأسطى» يتكلم الناس دي خافت منه؛ لأني الحارة كلها وقفت في ضهر الأسطى،

والله يا ابني أنا كنت بروح الشغل وأنا مش قلقان على العيال طول ما «الأسطى» قاعد في الحارة.

* * *

كان«الأسطى» لايرد سائلاً يقصد بابه، فجاء إليه جارٌ لنا وقصده في مبلغ من المال، لكن لم يكن مع«الأسطى» ما يعطيه لجارنا، فأرسلني لصديق له أطلب منه سلفة مالية فأعطانيها، فذهبت بها إلى «الأسطى».

فقال لي:اذهب بهذه الأموال إلى عمك فلان واعتذر له على التأخير.

خرجتُ أكلم نفسي وأقول ما هذا الذي يفعله «الأسطى»، ليس لدينا أموال، فيستدين من أجل غيره، هل هذا من الدين؟!

رجعتُ إلى البيت والغيظ يملئني فقلتُ له: «كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يعول»، ثم قلتُ له: «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها»، احنا مفيش عندنا فلوس نروح نستلف للناس ليه؟

الأسطى: يا ابني فلان دا اللي جه يستلف مننا فلوس، يمكن ما يعرفش حد غيرنا أو لو راح لحد غيرنا مفيش حد هيديلوا السلفة، لكن احنا ربنا كارمنا وعرفنا نتصرف له في الفلوس، اوعَ يكون في ايدك تخدم حد وتتردد أوتفكر وتقول: أخدمه ولا لأ، يا ابني عامل الناس علشان خاطر رب الخلق، واوع تنتظر مقابل من الخلق.

وفي يوم كنتُ أعمل في الورشة وإذ بأحد النصابين يأتي إلينا ويسأل عن «الأسطى»، ثم جلس داخل الورشة ينتظره، فلما جاء«الأسطى» طلب منه هذا النصاب مبلغًا من المال، وقال أنه في حاجة شديدة لهذه الأموال، فأعطاه «الأسطى» ما سأل، وكان مبلغًا كبيرًا.

فقلتُ له: حرام عليك يا اسطى اللي انت بتعمله دا، انت عارف انه مش هيرجعهم.

الأسطى: يا ابني طول ما أنا معايا فلوس ما اقدرش أقول لأي حد، مش معايا حتى لو كان نصاب ؛ لأني في احتمال انه يكون فعلاً محتاج الفلوس، وبعدين أخاف اقوله لأ، ربنا يحاسبني على عدم مساعدة محتاج وأنا قادر.

ولما جاءته «المرأة» التي شاع ذكرها، وذاع صيتها، وانتشر بين الناس خبرها، ولم يكن لبيوت الحي حديث غيرها، تطلب منه مساعدة، لم يرفض «الأسطى» مساعدتها«لسوء سمعتها»، ولم يُزين لها طريقها، فعادت

«المرأة» إلى بيتها محافظة على شرفها، بعد أن قام «الأسطى» بمساعدتها، ناظرًا إلى حالها لا إلى سمعتها وأفعالها.

فكأنَّ «الأسطى»سمع وفهم كلام المنفلوطي في «نظراته» وهو يدعو كل من كان في قلبه مثقال ذرة من الإنسانية، أن يقوم برحمة الساقطة ولا يزين لها طريقها، ولايشترِ منها عرضها؛ لعلها تعود بشرفها إلى بيتها، ويكون فعله هذا سببًا في توبتها.

* * *

اتفق «الأسطى» مع إحدى الشركات على صناعة عدد من الموديلات الجديدة، واتفقوا على الأسعار، وبعد الاتفاق ذهب «الأسطى» لشراء البضاعة، وكان الاتفاق بين الشركة و«الأسطى» أن سعر المتر بـــ«31جنيه» ودا سعر السوق يعني لو الشركة نفسها نزلت هتجيب المتر بالسعر دا.

كان للأسطى معارف كثيرة استطاع من خلالهم أن يشتري المتر بـــ«21جنيه»، يعني وفر تقريبًا ما يقرب من 15000 جنيه، فاتصل «الأسطى» بالشركة وقال لصاحبها متر الجلد اشتريته بـــ «21 جنيه» بدلاً من«31 جنيه»، فياريت تنزل فرق الجلد من سعر الشنطة.

_استغرب مدير الشركة من فعل «الأسطى» استغرابًا شديدًا، وقال للأسطى:انت كنت ممكن ما تعرفنيش، وأنا عمري ما كنت هعرف لأني سعر السوق«31 جنيه».

الأسطى: طب انت مش معايا ومش شايفني، ربنا راح فين.

صاحب الشركة: والله مفيش زيك دلوقتي يا عم رضا.

ذهبتُ في يوم إلى هذه الشركة فقال لي صاحبها: أنا بقول لأصحاب الورش اللي بيتشغلوا معايا على دروس الأمانة والصدق في التعامل، اللي أنا اتعلمتها من «الأسطى رضا».

وفي بداية «الألفية الثانية» تعاقد «الأسطى» مع شركة كبيرة، وكان هناك طلبية لهذه الشركة، فقاموا بشراء 1000 متر جلد «للأسطى» لزوم الطلبية، وكان مكسب«الأسطى» في هذه الطلبية قليل جدًا، فبعد الانتهاء من تسليم الطلبية تبقى من تفصيل الجلد قطع كبيرة تصلح للتصنيع أو للبيع، فاتصل «الأسطى» على الشركة وأخبرهم بالأمر وقال لهم أنه في انتظارهم حتى يأخذوا هذه القطع، فلم يطمع في شيء ليس من حقه رغم ان المتعارف عليه في الصنعة أن بواقي التفصيل للورشة، إلا أن «الأسطى» وجد أن هذه القطع سو ف يكون من ورائها ربح، فالأولى بهذا الربح صاحب الشركة وليس هو.

«11»

سطَّر «الأسطى» تاريخًا، بإنتاج ورشته، وبالصبيان الذين تعلموا عنده وأصبحوا أسطوات كبار، ثم بدأ «الأسطى» في مطلع الألفية يُصاب بحالة زهد في العمل، ولعل السبب في ذلك ما عاناه طول حياته من مشقة وتعب، فكأنه قال: حان الآن وقت الراحة، فبدأ اهتمام«الأسطى» بالورشة يقل، وكان شقيقه و ذراعه الأيمن«أشرف» مسئولاً عن التوزيع والتعامل مع التجار، ولا يستطيع الجمع بين إدارة الورشة والتعامل مع التجار، فأخذ يتكلم مع «الأسطى» في هذا الموضوع، وأنهم يريدون أن يتقدموا وأن يسيروا على طريق النجاح الذي هم عليه ولا يحيدون عنه، لم يلتفت «الأسطى» لكلام أخيه، وقال له: العملية ماشية ومستورة.

مضت الأعوام، وجاءت «السبع العجاف»، ليختبر الله بها صبر ورضا «الأسطى» الذي بلغ من العمر أربعين سنة، تدهورت ظروف البلاد وبدأت بعض الشركات التي كان يتعامل معها«الأسطى» تتحول من الملكية العامة إلى الملكية الخاصة«الخصخصة»، ومن أهم هذه الشركات التي خسر الأسطى أموالاً طائلة بسبب خصخصتها شركة«عمر أفندي»، فلم تكن الظروف مساعدة «للأسطى» على استعادة مكانته وإعادة وضعه وتمركزه؛ لأن الخسائر المالية كانت كبيرة جدًا.

بدأ العمال يتركون ورشة«الأسطى» التي عملوا فيها سنين ؛ لكونهم لا يريدون أن يحملوا أستاذهم أعباءًا فوق أعبائه، جلس «الأسطى» مع أخيه فقال له بصوت حزين وبقلب مجروح: لو في شغل ادامك روح ؟

أشرف: احنا مش هنستسلم للموجه يا اسطى وهنكمل بإذن الله.

الأسطى: الموضوع بقى أصعب من زمان يا «أشرف» الصين بتنزل شنطة أجود من شنطتنا وأرخص منها بـــ«15 جنيه»، واحنا فلوسنا اللي عند الزباين مش عارفين هناخدها امتى، التجار كلهم دلوقتي شغالين على الصين وبفلوسنا.

مرت أسابيع وجاء أشرف إلى شقيقه وأبيه «الأسطى» وأستأذنه في السفر إلى السعودية، فأذن الأسطى له، ودَّع «أشرف» أمه وأخيه، وسافرت زوجته إلى بيت أهلها بالإسكندرية، وسافر إلى السعودية ليبحث عن فرصة عمل في الغربة.

أصبح «الأسطى» بمفرده يعول أمه وزوجته وأبنائه الخمسة، لم يجد من يمد له يد العون؛لكي يخرج من هذه الأزمة، فحينئذٍ قرر ترك «محله الكبير» وتصفية كل مالديه من معدات، باع كل ما عنده من معدات إلا الماكينة «عزيزة والبنك الأحمر»، وقال سوف أرجع بهما إلى مكاني الصغير الذي انطلقت منه في بداية الثمانينات، قام«الأسطى» بتخزين المعدات مرة ثانية، لكن بعد خسارته مبالغ طائلة من الأموال، جعلته يصبح أفقر فقراء «الحارة»، ومع ذلك كان راضيًا بقضاء الله، وكان على إيمان أن الله سيفتح عليه مرة أخرى، فكان لا يحزن على مفقود ولا يفرح بموجود، وقال سوف: يأتي يوم تعود فيه «عزيزة» للعمل.

بدأ «الأسطى» مرحلة جديدة في حياته، بعد أن أغلق ورشته وخسر كل شيء، لم يجلس في البيت يبكي على اللبن المسكوب، ولم يتكبر على العمل عند الناس بعد أن كانت ورشته من أكبر الورش إنتاجًا، خرج ليبحث عن لقمة العيش والبسمة لا تفارق وجهه «ومشروع في عقله لم يمت أيضًا».

مشهد لا يفارق خيالي، مشهد يدل على الأمل وعدم اليأس، مشهد يدل على الرضا بقضاء الله وقدره، بدأ «الأسطى» يعمل في تجارة الإكسسوار، فكان يحمل على كتفه كرتونة وزنها يقرب من«40كيلو» ويسير بها من أول شارع عبد العزيز من جهة «قصر عابدين»، إلى نهاية شارع باب البحر من جهة «باب الشعرية»، يأخذ الكرتونة من المكتب ويقوم بتوزيع الاكسسوارات على الورش.

ظل هذا المشهد لا يفارق خيالي، وكنتُ أقول لنفسي: كيف بشخص كان لديه من الأموال والعمال، ينحدر به الأمر إلى هذا الحال، ومع ذلك لم يشكُ حاله ولم يقنط ولكنه كان شاكرًا صابرًا راضيًا.

ذهبتُ معه في يوم من الأيام فأكرمه الله في نهاية اليوم بـــ«400 جنيه»، فقال لي: تعال ياض نجيب لحمة.

ذهبنا للجزار واشترينا اللحم وخرجنا لشراء فاكهة وأشياء أخرى للبيت، فقلت له:يا اسطى الفلوس كده هتخلص!

الأسطى: ياض عيش يومك، انت ممكن تموت الصبح يعني مش هتاخد حاجة معاك.

وظل الأسطى على هذا الحال بضع سنين، يذهب إلى المكتب ويقوم بتوزيع الإكسسوارات على الورش، وفي يوم من الأيام وهو يحمل الكرتونة على كتفه يقابل أحد أصدقائه فيقول له: انت لسه فيك صحة تشيل وتشتغل يا رضا؟!

عاد الأسطى متأثرًا بهذه الكلمة، فسمعته وهو يتحدث مع أمي ويقول لها: هي الناس مستكترة عليَّ الصحة، هما كانوا عايزني اقعد عاطل من غير شغل وامد ايدي للناس، وبينما هما على هذا الحال يتبادلان الحديث، يسمعان آنين جدتي المريضة التي جاوزت «السبعين» فذهبنا جميعًا إلى سرير جدتي، فإذ «بالأسطى» يداعب أمه قائلاً لها: مالك يافاطمة.

فاطمة: ماليش يا ابني، وأخذت تدعو للأسطى.

نمنا جميعًا وفي الصباح الباكر استقيظنا جميعًا، وجلسنا نفطر وإذ بأمي تصنع فطور جدتي، وتقول لي: ادخل صحي ستك فدخلتُ إليها؛لأجد الروح الطاهرة قد فارقت الجسد، ماتت من كنا نعيش في رحاب دعواتها وبركاتها، خيم الحزن على وجه «الأسطى» إلا أنه كان صابرًا.

كانت علاقة «الأسطى» بأمه علاقة وطيدة، كل منهما لايستطيع أن يتخلَ عن الآخر، وفي مرة من المرات سألت شقيق «الأسطى» عن حال «الأسطى» مع أمه كيف كان ؟

فقال لي: «كان يحبها، وكانت تعشقه».

ثم قال لي: ذهبت «أمي» في يوم لقبض معاشها الشهري من التأمينات، وأثناء عودتها أوقفها «أحد النصابين»، فأعطاها شنطة صغيرة أوهمها أن

هذه الشنطة وقعت منها وبها أموال، وأخذ منها حلاوة هذه الشنطة التي هي مقلب من مقالب هذا النصاب.

فلما جاءت إلى البيت كنت واقفًا أنا و «الأسطى»، فنادتْ أمي عليه، فقلتُ لها وأنا ؟

فقالتْ:لا... رضا فقط.

فلما دخل «الأسطى»، قالتْ له: دي شنطة فلوس، فقال لها: نادي على أخي حتى نفتحها في حضوره، فدخلتُ وفتحنا الشنطة، فوجدنا في داخلها ورق جرائد ملفوف على هيئة رزمة الفلوس، فضحكنا من الموقف، «لكن هذا الفعل يدل على حبها له، كما يدل على بره بها».

بعد أن أصبح «الأسطى»لايملك إلا قوت يومه، كان لايقول إلا: «الحمد لله على ما نحن فيه»، فكنتُ أتعجب من حاله، وأتهمه في نفسي أنه السبب الرئيسي فيما وصلنا إليه من فقر شديد، حتى قصف «الأسطى» جبهتي بكلمة لم أفهم لها معنى إلا بعد سنين؛ حيث قال لي: انت يا ابني ما سمعتش إسماعيل يس في فيلم«الفانوس السحري» وهو بيقول:«فقر بلا دَين هو الغِنى الكامل»، يا ابني الغِنى غنا النفس، مش غِنى المال.

أخذتُ أتأمل في كلام «الأسطى» الذي لا يجيد القراءة والكتابة، فوجدته موافقًا كلام الحبيب ﷺ حينما قال: «من أصبح آمنًا في سربه معافىً في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها».

* * *

مر الأسطى بظروف قاسية وبدأ يبحث عن عمل مرة أخرى في أي مكان، فشاع الخبر وانتشر، وأخذ الصنايعية يتداولون خبر بحث «أستاذ الأساتذة» عن عمل، فأرسل «أحد صبيانه» إليه يعرض عليه العمل عنده، ليس من أجل رد جميل أستاذه، ولا الوقوف بجواره في محنته، ولكن من أجل أن يقول: «جاء رضا ليعمل عندي كما عملتُ عنده يومًا ما».

وافق «الأسطى» على العمل مع هذا الصبي، فتعجبتُ من فعله هذا وقلتُ له ستعمل معه بعد مقولته تلك؟

فقال لي: نعم يا ولدي إن فلانًا هذا «أي: الصبي» مسكين، يعاني من أوهام نفسية، فلعل الله يشفيه إذا تحققت أمنيته وعملت عنده.

وقد علمتني هذه المحنة دروسًا وعبرًا لاأنساها، كما أن هذه المحنة كشفت وأظهرت معادن الناس؛ فرأيتُ وجوها كانت«تزورنا» في بيتنا، وبعد أن وقع «الأسطى»في المحنة، رأيتُ تلك الوجوه لاتأتينا، ورأيتها تدخل البيت الذي«يلينا»، فسألتُ «الأسطى»عن عدم دخولهم بيتنا، فقال لي:ليس عند أبيك ما يجعلهم يأتون إلينا.

وبعد مرور أعوام رأيتُ تلك الوجوه تأتي بيتنا مرة ثانية، لكن حينئذٍ كان عند «الأسطى» ما يدفعهم لزيارته، فأكرمهم «الأسطى» وأحسن استقبالهم، ولم يعتب على أحد منهم ولم يقابل إساءتهم بإساءة، بل قابلها بالعفو والصفح والعطاء؛ لأن المعد الأصيل لا تغيره الأحداث ولا الأيام، فأخذتُ أتغنى بقول الشاعر:

رأيتُ الناس قد مالوا إلى من عنده مال ومن لا عنده مال فعنه الناس قد مالوا

ظل «الأسطى» يعمل حتى أكرمه الله بالعمل مع أحد الشباب، الذين فتح الله عليهم وأكرمهم لحسن خلقه وجميل خصاله، وبدأ «الأسطى» يعمل رغم تقدم سنه، من أجل عدم سؤال الناس، فلم يبخل على بيته بشيء، وكانت أمي صابرة على ما وصلنا إليه، وكان «الأسطى» على استعداد أن يصرف كل ما يملك من أجل تربية أبنائه وتعليمهم.

أخبرني أحد الأصدقاء أن مجموعة كتب المفكر الإسلامي «مالك بن نبي» تُباع وعليها خصم لفترة محدودة، وكانت أمنية حياتي اقتناء هذه المجموعة، لكن لم يكن لديَّ ثمنها الذي جاوز«300 جنيه» ذهبتُ لأمي وأخبرتُها بالأمر فقالتْ لي: أبوك يا ابني قافل الورشة ومفيش شغل، والقرشين اللي لينا عند الزباين يدوب على اد مصاريفنا، واللي جاي على قد اللي رايح... حينئذٍ فقدتُ الأمل في اقتناء المجموعة.

علم «الأسطى» بالخبر فناداني، فوقفتُ بين يديه أرتعش خوفًا منه وهيبة وإجلالاً له، فقلتُ له قبل أن يتكلم: أنا خلاص مش محتاج الكتب.

الأسطى: الكتب اللي انت عايزها بكام ؟

فقلتُ له: 350 جنيه تقريبًا.

فأعطاني المبلغ لشراء المجموعة ولم يكن في بيتنا سوى هذه الأموال، فاعترضتْ أمي على فعل «الأسطى» هذا.

فقال لها: الفلوس بضيع أما العلم هو اللي فاضل، يا ست خليها على الله.

فوالله بعد هذه الواقعة بأيام وسع الله على «الأسطى» ورزقه من حيث لا يحتسب.

ضاقت «بالأسطى» كل السبل، وتقهقرت به الأحوال، فكان صابرًا على قضاء الله فيه، راضيًا بحكمه، مستسلمًا لأمره، فلم يشكُ مصيبته لأحد، فظن الناس أنه لم يصبه شيء لعدم شكواه، وأنه قد أغلق ورشته بخاطره، ولديه ملايين الأموال.

لم يلتفت «الأسطى» للقيل والقال؛ لكن هذا هو حال الشدائد تُظهر معادن الرجال، ففي ظل هذه الأزمات يأتي العيد ببهجته، فلم يكن لدى «الأسطى» ثمن كسوة أبنائه وزوجته.

لم يفكر «الأسطى» في الغد، لكنه كان يفكر في الوقت الذي يعيشه وهذا ما قال عنه السادة الصوفية «الصوفي ابن وقته»، مرت الأيام والعيد أصبح على الأبواب، ومن غير تنسيق ولا ترتيب، يتصل «بالأسطى» ذراعه الأيمن، وعقله المدبر، ورفيق دربه، شقيقه الأصغر «أشرف»، من «السعودية»، فقام بالاطمئنان عليه وأخبره أنه قد أرسل إليه أمانة من السعودية غدًا تصله مع أحد أصدقائه، انتهت المكالمة، ولسان حالي يقول: «أليس الصبح بقريب»؟!.

في الصباح الباكر اتصل حامل الأمانة «بالأسطى»، فذهب إليه وكنتُ معه، وكان ذلك في التاسع والعشرين من رمضان، استلم «الأسطى» الأمانة التي كانت شنطة سفر متوسطة الحجم بها كسوة كاملة لجميع أفراد أسرة «الأسطى»، ومعها ظرف به ٥٠٠ دولار.

وقفتُ أتأمل الموقف وأقول لنفسي: إن الجزاء من جنس العمل، فحينما كان لدى «الأسطى» الأموال كان يوسع على الناس، فلما دارت عليه الدائرة سَخَّر الله له من يُوسع عليه هو وعياله، دون أن يطلب من أحد شيئا.

ظل «الأسطى» ينتقل من مكان إلى مكان بحثًا عن قوت يومه، حتى وصل الخبر إلى صديقه الصدوق«خالد الزول»، فأرسل له فذهب «الأسطى»إليه، فاستقبله «خالد» استقبالاً حارًا وأخذ يعتبُ على «الأسطى» ويقول له:خد بضاعة وفلوس وارجع افتح ورشتك، «الأسطى رضا» عم الصنايعية ما يشتغلش عند صبيانه.

الأسطى: الموضوع محتاج شوية وقت يا خالد.

خالد: يبقى خلاص تعالى امسك الورشة بتاعتي، مكان أخوك يبقى مكانك.

وافق «الأسطى» على العمل مع صديقه «خالد»، حتى تهيأت له ظروف العودة، عاد «الأسطى» ليفتح ورشته مرة ثانية، بعد سبعة أعوام عجاف كانت ورشته مغلقة، عاد الفارس إلى الميدان، لكن الأمر أصبح مختلفًا، فهناك تحديات تواجه «الأسطى» بعد عودته،

صبيانه وصبيان صبيانه أصبحوا أصحاب ورش كبيرة، أما «الأسطى» سوف يبدأ من الصفر في ورشته الصغيرة ببيته، وبالمعدات القديمة، بدأ «الأسطى»العمل فلم يجد من يعمل معه فقال بكل أمل لأحد أصدقائه وهو يبحث عن عمال: أنا مش هدور على حد تاني من الصنايعية.

فقال له: امال هتعمل ايه يا اسطى؟

الأسطى: هجيب عيال صغيرة وهعلمها، زاي ما علمت الاسطوات بتوع اليومين دول زمان.

فقال له: احنا عايزين إنتاج يا اسطى علشان تعرف تقف على رجلك، وترجع الورشة زي زمان.

الأسطى: أنا هطلع شغل بالحرافيش دول... إشارة لي أنا وأخي «علي».

فبعد أن قام «الأسطى» بفتح ورشته كان يعمل بمفرده، وكنتُ أساعده أنا وأخي «علي»، ابن الثانية عشر عامًا.

وكنا نعاني في بداية الأمر سوء الأحوال وعدم استقرارها، ففي يوم من الأيام كنا في حاجة «لعشرين جنيهًا»؛ لكي نشتري بها «كُله» فلم يكن مع «الأسطى» هذا المبلغ، فأرسلني لأكثر من شخص لكن لم يشأ الله أن نحصل على هذا المبلغ، بكيتُ على حالنا بعد أن كان عندنا كذا وكذا ولدينا كذا وكذا، ليس باستطاعتنا أن نشتري طلبات للورشة «بعشرين جنيها»، رأني «الأسطى» وأنا أبكي، فسألني لماذا تبكي؟

فقلتُ له:أبكي على حالنا.

فضربني على صدري وقال لي: انت فاكر الشغل هيقف، على الفلوس ؟

فقلتُ له: ماذا سنصنع؟

الأسطى: هات من عند امك حبة دقيق، وكيس ملح، وشوية نشا، وانت تشوف أنا هعمل ايه.

جئتُ بهذه الأشياء له، فقام بخلطها بطريقة عجيبة حتى أصبحت العجينة تقوم مقام الكله، فقال لي شوفت يا اخويا الشغل خلص من غير كله ومن غير فلوس ومن غير دموع.

فقلت له:انت عرفت الكلام دا ازاي يا اسطى؟

الأسطى: كان في أوقات زمان مابيبقاش فيه كُله علشان الحرب، فكان الأسطى علي شلبي الله يرحمه بيعمل نشا بدل الكُله.

فعرفتُ حينها أن اليأس لم يصل إلى قلب «الأسطى» وعزيمته، وأنه سيُعيد أمجاده الماضية.

«12»

بدأ «الأسطى» يعمل بكل قوة، وأخذ يطور من ورشته، وبدأ العمال يأتون إليه، فعاد الأسد إلى عرينه، وفتح الله عليه أبواب الخير، فقام بتوسيع النشاط، وأخذ عدة أماكن، ورغم كل ما حدث معه لم يقابل «الأسطى» إساءة من أساء إليه بالإساءة، بل قابلها بالعفو والصفح، فكان يستر كل قبيح، ويظهر كل مليح، فعرفتُ حينئذٍ أن لقب «الأسطى» ليس كلمة تطلق على كل من هب ودب.

عاد «الأسطى» إلى عهده القديم في العطاء والكرم والتوسعة على الناس، فكان عنده موديل من أصعب الموديلات، وبالإضافة إلى صعوبته كان مكسبه قليلاً، ومع ذلك كان «الأسطى» يحب العمل في هذا الموديل؛ لأن به شغل يدوي يقوم بتنفيذه بعض الناس.

سألتُ «الأسطى» عن سر اختياره هذا الموديل الصعب، رغم أنه لدينا في الورشة موديلات أسهل منه بكثير، ومكسبها أكثر، فما السر في هذا الأمر؟

الأسطى: يا ابني أن بحب الموديل دا علشان خاطر الناس اللي بتشتغل في الجدل اليدوي ياكلوا عيش معانا، ما تعرفش يمكن ربنا بيكرمنا وبيسترها معانا علشان خاطر هم.

هكذا ظل «يحب الخير للغير ويرفع الضيق عن الغريب والصديق».

ذهبتُ معه إلى شاب كان يتعامل معه ولنا عنده أموال لم يسددها، وظل فترة طويلة لم يسدد ما عليه من أموال، فلما ذهبنا إليه وجدنا الشاب مصابًا بكسر في قدمه، وقام بتركيب مسامير وشرائح فيها، كما وجدناه مصابًا بجروح بالغة في جسده.

فقال الشاب للأسطى: محتاجك تقف جنبي يا عمي رضا، عايزك تعملي100 شنطة ارجع اقف بيهم على رجلي من تاني ؛ لأني الظروف صعبة جدًا معايا اليومين دول، وأول ما هبيعهم ادفع تمنهم، وجزء من الفلوس القديمة.

الأسطى: خلاص يا ابني بإذن الله تعالى هعملك 100 شنطة وربنا يقومك بالسلامة.

بعد خروجنا من عند الشاب قلتُ للأسطى: كيف توافق على هذا الأمر؟ ولنا عنده أموال متأخرة لم يسددها.

الأسطى: انت شايف الواد متكسر خالص يمكن لما نقف جنبه ربنا يكرمنا ويكرمه، خليها على الله.

* * *

رغم أن «الأسطى» كان رجلاً بسيطًا لا يجيد القراءة ولا الكتابة، إلا أنه كان محبًا للعلم وأهله، أرسلني إلى الجامع الأزهر الشريف حتى أدرس علوم الشريعة على أربابها، وقال لي: احنا وهبناك للعلم، وربنا هيرزقنا علشان نقدر نصرف عليك.

فكان يأخذني إلى الترزي، ويُفصل لي الجبة والقفطان، ثم يأخذني إلى شارع الغورية ليشتري لي العمامة من هناك، ولما كثرت مشاغله كان يعطيني في بداية كل عام دراسي «1000 جنيه» من أجل تفصيل زي جديد علشان؛ ذلك لأنه كان يعشق زي الأزهر وعلمائه.

ولما بلغه خبر منع فضيلة الشيخ/ على صالح من التدريس بالجامع الأزهر الشريف، حزن حزنًا شديدًا، فقال لي: اوع تسكت على حق مشايخك.

قلتُ له وأنا أضحك معه: ممكن اتسجن يا اسطى.

الأسطى: انت مش مهم يسجنوك بس المشايخ ترجع للتدريس.

فلما عاد فضيلة الشيخ علي صالح للتدريس فرح فرحًا شديدًا.

فقلت له: سوف أكتب ترجمة للشيخ علي صالح.

الأسطى: وأنا هديلك تمن طبع 1000نسخة نوزعهم هدية، علشان الناس تعرف مين هو الشيخ علي صالح.

* * *

أكتوبر عام«2014م»

مات «خالد الزول»الصديق الصدوق «للأسطى» قبل عيد الأضحى «الموافق 4 أكتوبر» بأربعة أشهر فحزن عليه حزنًا شديدًا، فكان يذكره في كل يوم بالخير ويترحم عليه.

فقلت له:لهذه الدرجة تحبه يا اسطى ؟

الأسطى: يا ابني «خالد» وقف بجواري في وقت تركني فيه كل الناس، ساعدني لحد ما وقفت على رجلي وفتحت ورشتي بعد قفلها سنين، خالد كان بيبعتلي فلوس قبل العيد علشان اجبلكم الكسوة، عرفت أنا بحبه ليه ؟!

بدأ الحاقدون والحاسدون يمرون على «الأسطى» في ورشته ويقولون له بكل بجاحة:«يا اسطى رضا يا مولعها» كناية عن كثرة الشغل.

أيام وستحتفل الأمة الإسلامية «بعيد الأضحى»، أرسل «الأسطى» أموالاً لأحد أقاربه في الصعيد، فقام بشراء الأضحية له، وبدأ «الأسطى» يشطب في الشغل الذي في يديه، كما قام بشراء بضاعة للشغل المطلوب منه بعد العيد.

وفي صباح يوم الخامس من ذي الحجة، يستيقظ «الأسطى» على رنة هاتفه ليجد أحد الجيران يصرخ ويقول: انت فين يا«اسطى» الورشة بتتحرق.

خرج«الأسطى» من بيته مسرعًا، فتعجب الناس من مشيته المسرعة تارة، ومن هرولته تارة أخرى، وصل إلى ورشته وخلفه مئات المحبين، فوجد النار قد أكلت «اليابس والأخضر»، فقال: الحمد لله بسيطة بإذن الله، والحمد لله إنِ مفيش حد من العمال موجود.

الأمر لم يكن بسيطًا فإن الحريق كان هائلاً وكانت الخسائر كبيرة.

نظر «الأسطى»إلى أبنائه فرأى الحزن في وجوههم، ودموع في أعينهم، فقال لهم: انتم زعلانين ليه، الورشة هتبقى تمام دلوقتي، وكل حاجة هترجع زاي الأول وأحسن، لم ييأس «الأسطى» بل حمد الله ورضي بما كتبه له و قام بتجديد الورشة وإصلاح المعدات في يومين، فعادت الورشة كأنها جديدة.

جلستُ مع «الأسطى» فقلتُ له: انت زعلان على اللي حصل ؟

الأسطى:أنا من امتى ياض بزعل على فلوس تضيع مني، أو بفرح بفلوس تكون معايا، وبعدين خسائر الحريقة تيجي ايه فى اللي أنا خسرته زمان، ثم قال لي: بس تعرف ياض لو النار كانت مسكت في مولد الكهربا كانت النار كلت الأخضر واليابس، ضحك وأضحك كل الجالسين ممن جاءوا لمواساته.

رغم هذه المصائب التي هو فيها، كان جالسًا في بيته فسمع أصوات مشاجرة بين صاحبة العقار المجاور له وساكن عندها، فقام يجري على الشارع، ودخل كعادته في قلب المشاجرة وعند وجوده سكت الجميع ليستمعوا «للأسطى»، فقال لهم:ايه الحكاية في ايه؟

صاحبة العقار:عليه فلوس يا اسطى، واحنا في دَخلة عيد.

الأسطى: عليه كام؟

صاحبة العقار:300 جنيه.

- وضع «الأسطى» يده في جيبه وأخرج كل ما فيه، فلم يكن في جيبه سوى 280 جنيه، فوجد أحد أبناء الحارة بجواره فقال له هات 20 جنيه، ثم أعطى الأموال لصاحبة العقار، وانتهت المشاجرة في دقائق، ثم قال لهم جميعا:كل سنة وانتم طيبين.

جلستُ كعادتي أتعجب من أفعاله، بل جاء أحد أصدقائي ممن شاهدوا الموقف وقال لي: هو أبوك ماله باللي يتخانق أو ما يتخانيقش، أو يدفع ليه فلوس من جيبه، لا وايه دفع كل اللي في جيبه علشان يحل المشكلة!!!

فقلتُ له: لو هو ما عملش كده مش هيبقى هو دا الأسطى رضا الأسمر الذي أحب كل الناس فأحبه كل الناس.

لم يكن لحادث «حريق الورشة» أثرًا في نفس «الأسطى»؛ حيث خرج من هذا الحادث وكأن شيًا لم يكن، إلا أنه فعل شيئًا غريبًا ذهب إلى خالته «عيدة» وقال لها: لما أموت أمانة ادفن جنب عمي الحاج عيد، مرت الأيام الخمسة لنحتفل جميعًا بالعيد ونقوم بذبح الأضحية، ونقوم بتوزيعها على الأهل والجيران والفقراء والمساكين، وكان «الأسطى» يوزع الأضحية كلها ولا يتبقى منها لأهل بيته شيء، خرج «الأسطى» ليلة العيد ليجلس مع أحبابه وأصدقائه، وفي الحقيقة خرج ليودعهم.

بعد صلاة فجر اليوم الثاني من أيام العيد، استيقظتُ من نومي، فسمعتُ صوتًا خافتًا يردد قائلاً:«أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله»، تتبعتُ الصوت فوجدته صوت «الأسطى»، غلبني النوم مرة أخرى، وأخذتني غفوة، إلا أن صوت «سعال صدر الأسطى» لم يدعني استمتع بغفوتي طويلاً، فاستيقطتُ وخرجتُ إلى غرفة الضيافة فوجدته جالسًا على أريكته، جلسة الأسد في عرينه، لكن سعال صدره يحتاج لطارد يطرده، فقلت له: أتدري ما سبب هذا السعال يا اسطى ؟

الأسطى: ايه السبب يا فصيح؟!

أنا: السجائر اللي انت بتشربها.

تبسم في وجهي ثم نظر إلى علبة السجائر التي لم يكن بها سوى سيجارة واحدة، فقام بقطع العلبة الخاوية، الحاوية لسيجارة يتيمة والقاها على الأرض، ثم أقسم بالله أنه لم يشربها مرة ثانية.

تعجبتُ من فعله وقسمه.

الأسطى: اجلس عايز اتكلم معاك.

جلستُ في الأرض، وبدأ سعال صدره يهدأ.

الأسطى: اسمع ياض انت الكبير، عايزك تخلي بالك من أمك واخواتك، علشان أنا هاموت.

أنا: ما هذا الذي تقوله يا اسطى ؟! هل تشعر بألم؟

الأسطى:أنا مش تعبان ولا حاجة وفريش خالص أهو... اقعد يا ابني اسمع الكلام

احنا لينا عند فلان كذا وكذا، وعلان له عندنا كذا وكذا، وخلي بالك انت واخواتك في ناس هتمشي من الورشة، وفي ناس هتجر شكلكم بعد موتي، مش عايزكم تشغلوا بالكم بيهم.

أنا: أنا أسمع كلامه وأنا في غاية التعجب، فقلتُ له لاتمزح سوف أصنع لك ينسونًا يقلل من حدة هذا السعال.

الأسطى:وهو يضحك ويبتسم كعادته، طب والله هموت دلوقتي، اسمع لاتلتفت لهؤلاء الناس الذين سيقومون بتركك في أول الطريق، ووصيتي لك أن تعفو عن المسئ، وأن تبذل الخير للغير، وأن ألا تنتظر مقابل على خير تفعله، وأوصيك بأبنائي لاسيما أصغرهم، وأرجو منك أن تكون لين الجانب معه، وأن تتحمله.

صنعتْ أمي يانسونًا وقدمته «للأسطى» فلم يشربه.

الأسطى: لو تروح تجبلي الزجاجة «سفن آب» يكون أفضل.

خرجتُ مسرعًا وأحضرتُ له زجاجة «سفن متوسطة الحجم» في بضع دقائق.

الأسطى: انت ياض بخيل كنت جبت زجاجة كبيرة، أنا كده هخاف على عيالي من بخلك.

أخذتُ أضحك معه وأتبادل أطراف الحديث، فإذ به ينتهي من شراب الزجاجة ثم يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»..«إنا لله وإنا إليه راجعون».. «إنا لله وإنا إليه راجعون».

سمعتها منه سبع مرات، وبعدها فاضت روحه إلى بارئها.

«مات الأسطى»

مات صاحب الجناب الأجل، والكهف الأظل..... مات ملجأ الفقراء والمساكين، ومحط رحال البسطاء والمهمشين.... مات خادم الحارة وراعيها، وكابح قوى الظلم والشر فيها... مات القائم على شئونها، والراعي لسكانها، والمُقرَّب لأهلها، والحصن المنيع لها من أعدائها.

انتشر خبر «وفاة الأسطى»في ربوع الحي، فوجدتُ جموعًا من الناس أمام بيتنا جاءوا من كل فج عميق، لكي يودعوا حبيبهم «الأسطى رضا»، ومما شدَّ انتباهي ولفتَّ نظري ذلك الطفل الصغير الذي وقف أمام بيتنا يبكي بكاءًا شديدًا وأنا لا أعرفه، اقتربتُ منه وأخذتُ أمسح على رأسه فأخرج ليَّ الطفل من جيبه «10 جنيه».

فقلتُ له: ما هذا؟

الطفل: دي 10 جنيه «الأسطى» ادهاني بالليل وقالي دي عيديتك.

فقلتُ: أتعبتَ من سيأتي بعد ك يا «اسطى»فإن الحب لا يُباع وأن العطاء يكون بلا مقابل.

استخرجنا تصريح الدفن، ثم قمتُ بالمشاركة في تجهيزه لحياته الجديدة، فوجدتُ نورًا يشع من وجهه، فلما خرجنا بجسد «الأسطى» من البيت انطفأ نور البيت وأصبح مظلمًا، كما رأيتُ «المج» الذي كان يشرب فيه الشاي، يقع مكسورًا بعد وفاته بدقائق، والأعجب من ذلك، أن الكرسي الذي كان يجلس عليه «الأسطى» كُسر قبل وفاته بدقائق أيضًا، فكأن الأشياء حزنت على صاحبها.

خرج «الأسطى» محمولاً على الأعناق، ذاهبين به إلى دار البقاء، فلما خرجنا من البيت وجدتُ النساء تبكي والأصوات ترتفع بالوداع والسلام، في مشهد مهيب لم تر عيني مثله إلا عبر شاشات التلفاز، الرجال والنساء والأطفال الكل يبكي على رحيل «الأسطى»، في ظل هذا المشهد المهيب، أسمع صوت العجوز الباكي الذي وقف في شرفة منزله، قد حبسه الشيب والمرض من تشيع حبيبه إلى مثواه الأخير يقول: مع السلامة يا اسطى مع السلامة يا شيخ الحارة.

خرجتْ الحارة عن بكرة أبيها تودع من أفنى عمره في خدمتهم، صلينا عليه في الجامع الكبير، الذي لم أراه في حياتي ممتلئًا إلا في يوم الجمعة، ويوم الصلاة على «الأسطى»، خرجتْ الجنازة المهيبة وكأنها زفة عريس، ثم ذهبنا به إلى مقابر العائلة بحي السيدة عائشة كما طلب هو، حيث طلب أن يدفن بجوار «الحاج عيد»، عاش الأسطى محبًا للعلماء والأولياء، فلما مات دُفن

بجوارهم، مات «الأسطى»وظلتْ أفعاله وأخلاقه حاضرة بين الناس، باقية إلى أن يشاء الله.

أريد أن أقف «لحظة» عند زوجة «الأسطى» ؛ لكي نتعلم معنى الحب والصبر والرضا، منها ومن زوجها رحمه الله، فلما وقع «الأسطى» في ضيق شديد تحملته زوجته الصابرة الراضية الكريمة التي لم أر في كرمها وحبها للناس مثيل، ظل «الأسطى» حافظًا لها هذا الموقف النبيل، فلما أكرمه الله بالأموال مرة الثانية، قال له أحد الناس:عايزين نشوفلك عروسة يا اسطى.

الأسطى: لو في حد يستحمل ربع اللي زوجتي استحملته معايا أنا موافق.

فقال الأسطى: لم أجد مثلها؛ حتى أتزوج عليها، فلما كنتُ ميسور الحال كانت لله شاكرة، ولما دارت عليَّ دوائر الدهر كانت على البلاء صابرة، فقد تحملتْ معي «الضيق بعد السعة» و «الفقر بعد الغِنى»، فمن«العيب والخسة» أن أقابل وفائها بغدر.

ـ مرضتْ زوجته قبل وفاته بشهور فأرسلها إلى أمهر الأطباء، فقالتْ له: «أسعارهم عالية، وأدويتهم غالية».

فقال لها الأسطى: «لاعليكِ من هذا كله، أنت عامود البيت فإن وقع العامود سقط البيت».

– ضعف نظرها فقال لها: «هعملك نضارة علشان تشوفي بيها الحلو من الوحش».

مات الأسطى فحزنت عليه حزنًا جعلها «طريحة الفراش» وقد عجز الأطباء عن تطبيبها، فهذا هو حال«أهل الحب والوفاء»، فقلتُ صدق الشاعر حينما قال:

حبيبي لا يعـالـه حبيب مـا لسـو في قلبي نصيب
حبيبي غـا عن سمعي بصري لكـن عن فـؤ أبدًا لا يغيب
للحب سر ما لت جهله كم سو بسر لحب قد حا
ليس في لليل للعبا سر في لشفا ترتيل كا
فلكل قلب ما حب سر كل حب في غير لله ينها

* * *

أغسطس عام «2020م»

هذه هي قصة جدك«الأسطى» يا «علي» من مولده إلى وفاته، أليس كذلك يا أمي ؟

أمي: انت ما قولتش غير الحقيقة، كل كلامك صح ومظبوط.

علي: وماذا فعلتم بعد وفاة «جدي»؟

أنا: أخذنا نسير على دربه، فمن سار على درب الصالحين وصل.

ظل بيت «الأسطى» عامرًا ببركة صلاحه ومعاملته مع الله، فلم أنس هذه المرأة التي جاءت إلى بيتنا بعد وفاة «الأسطى» وهي تبكي، وتقول: فينك يا اسطى رضا تحللنا المشكلة اللي احنا فيها.

ظلت سيرة «الأسطى» ومواقفه خالدة بين الناس، يذكرونه بالخير، ويدعون له ويترحمون عليه، فنحن جميعًا نعيش ببركته و فضله وحبه ومحبته للناس، عاش «الأسطى»حياته للناس فمات جسده وصارت سيرته الطيبة باقية لم تمت بين الناس.

علي: وماذا فعلتم في الورشة ؟

أنا: «ورشة الأسطى رضا الأسمر» يا «علي» ليست ورشة تقليدية، باختصار شديد، هي مدرسة لتعليم الأدب والأخلاق والحب، قبل تعليم الصنعة، فكانت الورشة جزء لا يتجزأ من حياتي؛ لأنها تاريخ أبي، ووصيته لي، فبعد وفاة «الأسطى» سقطت الأقنعة عن وجوه الأندال، الذين وقف «الأسطى» بجوارهم وساعدهم.

أحسن «الأسطى» إليهم، فلم يحفظوا جميله وفضله، لكن لا عتاب عليهم ؛لأن المثل يقول:«عتاب الندل اجتنابه»، كما أننا لم نلتفت إلى كلامهم عملاً بوصية «الأسطى»؛ لأن الملتفت لا يصل، فبعد مرور عام من وفاة «الأسطى»، عرفنا فيه من قام برد جميله اعترافًا بفضله عليه وحبًا منه إليه، وعرفنا الخائن الذي لم يعترف بالجميل ونسي فضل أستاذ الأساتذة عليه، لكن تعلمنا من «الأسطى» العفو عمن ظلمنا، ووصل من قطعنا، واعطاء من حرمنا، وأن نحب الناس من أجل رب الناس، لا من أجل ما عند الناس؛لأن ما عند الناس ينفد وماعِندَ اللهِ بَاقٍ.

وظلتْ ورشتنا عامرة بفضل الله، لم يضرنا ما يفعله الأندال؛ لأن«الأسطى»كان من الصالحين، وصلاح الآباء يدركه الأبناء، كما ظل اسم «الأسطى» خالدًا بين الناس في صنعته لسيرته العاطرة، وأفعاله الحميدة، في كل يوم يُذكر بالخير، وفي كل يوم يرسل إليه أحبابه الدعاء، والحمد لله قد ترك لنا «الأسطى»ما يغنينا عن الحاجة إلى هؤلاء اللئام.

* * *

وقد واجهتنا بعض الصعوبات في بداية العمل بعد رحيل «الأسطى»، بسبب الصنايعية الذين كانوا يعملون في ورشتنا وتركونا.

علي: وماذا صنعتم يا أبي ؟

أرسلتُ رسالة إلى قهوة الصنايعة بطنطا، قلتُ في مطلعها:

بسم الله الرحمن الرحيم

أبناء مهنتنا الأفاضل.... تحية طيبة وبعد؛؛؛؛

علمتم جميعًا بموت أستاذكم «الأسطى رضا»، فلما انتقل «الأسطى» من دار الفناء إلى دار البقاء، أصبحتُ أنا واخوتي مكان أبي، فتوليتُ إدارة ورشتنا، ورعاية مصالحنا، فأخذتُ أسير مع العمال على سير «الأسطى»، تابعًا غير مستتبَع، مُتبعًا غير مبتدع، مقتديًا بما كان عليه «الأسطى»معهم فلم أغير ولم أبدل.

فمضت الأيام والشهور، وتمكن الشر بأهله، فبدت ضغائن وأهواء، وكلام كثير بين الصنايعية فلم التفت للقيل والقال، وجلستُ معهم جميعًا، فأظهروا أنهم معي، وأخفوا أنهم يريدون ترك الورشة فظلوا هكذا يعيبون عليَّ أشياء مما كانُوا يرضون، وأشياء أخرى يعلمها أهل الصنعة لا يصلح غيرها، فصبرتُ لَهُمْ نفسي وكففتها عَنْهُمْ، وأخذتهم بالحلم واللين، فمنذ شهور وأنا أَرَى وأسمع، ظننتُ أن حالهم سينصلح، فازدادوا عليَّ جرأة، وانضم إليهم أنصاف المتعلمين ممن لا يحسنون عملاً في صنعتنا، وتركوا ورشتنا، في وقت شدة وضيق، فنحن الآن كالغرق في وسط البحر نحتاج «لطوق نجاة» فمن قدر منكم على اللحاق بنا فليلحق.

فقام أحد المحافظين على جميل «الأسطى»وقال: يا شباب، إن الكلام الْيَوْم وليس به غدًا، وإن العمل يحسن الْيَوْم ويقبح غدًا، هيا بنا نذهب لابناء أستاذنا ومعلمنا؛ لكي نقف بجوارهم في محنتهم، فجاء هذا الوفي ومعه طقم كامل من الصنايعية.

* * *

علي: لا تزال يا أبي شخصية «الأسطى»تشغل حيزًا من تفكيري، فكيف بشخص ظل يعمل في مهنته نحو ما يقرب من «40 سنة»، ولم يكن لديه عقارات أو سيارات أو ممتلكات، مع أن صنعته مربحة إلى حد لا بأس به.

أنا: قبل وفاة «الأسطى»كنتُ أقول في نفسي إن أبي لم يصنع لنا شيئًا، وضيع أمواله ولانعرف أين ضاعتْ، فسوف يحاسبه الله على هذا الصنيع، لكن بعد وفاته عرفتُ أن أمواله لم تُصرف إلا في إدخال البهجة والسرور على الصغير والكبير، فكان يعين بأمواله كل محتاج وفقير وقع في شدة أوضيق، سواء كان مسلمًا أو غير مسلم؛ لذلك ليس من العجيب أن ترى المسلم والمسيحي، والرجل والمرأة، والصغير والكبير، يبكون عليه عند وفاته، ويترحمون عليه ويدعون إليه إذا ذُكر اسمه بعد مماته.

فكان «الأسطى»يستخدم أمواله في ستر العورات، وتفريج الكربات، والمعاونة في المهمات، وقضاء الحاجات، وإغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وإعانة الضعيف، والتيسير على المعسر.

علي: لذلك استطاع «جدي الأسطى»في وقت قصير عاشه بين الناس أن يؤثر فيهم هذا التأثير.

أنا: يا «علي» رحل الأسطى عن خمسين سنة عاشها في خدمة الناس وبذل العطاء، فليس الفقير يا ولدي هو فقير«المال»، إنما الفقير هو فقير «الأخلاق»، كما أن الغني ليس هو من كان عنده أموال وعقارات، إنما الغني هو من عنده أفكار ومشروعات تخدم الإنسانية، وتبني المجتمعات

وعمر الإنسان لايُقاس بالسنين التي يعيشها ولكنه يُقاس بالأثر الذي يتركه بعد رحيله، فكم من معمر عمر في الدنيا ثم رحل عنها ولا أثر له فيها، وكم من صاحب عمر قصير، رحل عن الدنيا وترك فيها ما ينفع الناس وينفعه بعد رحيله.

* * *

علي: ماذا فعلتَ يا أبي مع الأندال الذين أنكروا جميل جدي؟

أنا: في بداية الأمر أخذتني الحمية والعصبية، ثم بعد ذلك تذكرتُ وصية «الأسطى»، وبعد فترة رأيتُ«الأسطى» في المنام ؛ حيث كنتُ واقفًا أمام الورشة ومعي اخوتي وبعض أحبابنا، وكنتُ أمسك في يدي عصا ؟

الأسطى: انت واقف يا ابني ليه كده في الشارع ؟

أنا: صبيانك يا اسطى عايزين يقفلوا ورشتك.

الأسطى: يا ابني ما ينفعش تمسك عصايا وتقف في الشارع كده، مش أنا قلتلك انك لازم تقابل الإساءة بالعفو.

أنا: بس يا اسطى دول عايزين يقفلوا الورشة.

الأسطى: يا ابني ورشة «الأسطى» مفيش حد يقدر يقفلها أبدًا؛ لأنها

مبنية على الحب وعمل الخير والتجارة مع ربنا، ورشة الأسطى محفوظة بحفظ الله، فهمت يا ابني.

* * *

«قد مات قوم وما ماتت فضائلهم، وعاش قوم وهم في الناس أموات، فالكل موتى إلا أهل الحب فهم الأحياء»

تمت